رواية
رحاب إبراهيم عجم

فيافي

بقلم/ رحاب إبراهيم عجم

"في غمرة أحزاننا تصبح حياتنا فيافي"

ذلك العمل إهداء إلى حسن إسلام، بطل والدته الصغير، أتمنى يا صغيري أن تكبر وتصير بطلاً من أبطال الروايات والحكايات، رجلاً بقامة عالية وشموخ، رجلاً تهابه الضواري وتحذي حذوه الأشبال، وأتمنى لك ولإخوتك من سويداء قلبي كل السعادة والهناء، وأتمنى لوالدتك "هدير السيد" المعطاءة، الشجاعة؛ الكثير من الرخاء والحياة السعيدة.

بأنفاس لاهثة ظلت تركض، تدور بعينيها في تلك الصحراء المترامية على شيء تحتمي فيه من كيظ الصحراء أو شخص تلجأ إليه من تلك الخيالات التي تطاردها، تريد السكون، تريد الراحة، تعب جسدها ودامت قدميها من رمال الصحراء الساخنة، قلبها على وشك الانفجار... ظلت تتلفت باحثة عن مأوى حتى فاجأتها كلاليب حديدية تمسك بقدميها وتسحبها بعنف وسرعة خيالية!.. وظلت تعاني حتى أفاقت وهي تصارع الحياة على سريرها. وضعت كفها على قلبها النابض تحاول تهدئته والكف الآخر على رقبتها وهي تحاول دعم نفسها في الحصول على الأكسجين ناظرة بفزع فيما حولها، ظلت تغلق عينيها وتفتحها مرات غير مصدقة باندماج الصحراء بغرفتها ثم انسحابها ببطء حتى انحسرت كما خيل لها في حبة رمل واحدة. هدأ قلبها وسكن جسدها ولكن كان كحجارة محطمة فلم تقو على الحركة، ارتمى نصفها العلوي على السرير مرة أخرى ولكن بعينين مفتوحتان على آخرهما، نظرت إلى الباب كمن أرادت بشدة طلب النجدة ولكنها تعرف أن بالخارج خيالات تعيش معها كتلك الخيالات

التي في أحلامها؛ لا هدف لها إلا بتعريضها للأذى، لا شخص هنا يهتم لأمرها.

أشاحت بوجهها عن الباب لتنزل دمعة حارة بحرارة صحراء أحلامها المخيفة واستسلمت للنوم مرة أخرى بخوف.

خرجت حور في عجلة من باب المنزل حتى لا تسمع تذمرات عمها وزوجة عمها التي تطولها كل يوم دون رحمة عن المال وغلو المعيشة والحياة الصعبة وعليها أن تساعدهم أكثر من ذلك. تخرج كل يوم وهي مثقلة بالكثير من الضغوطات التي تجعل سماء حياتها دائماً ملبدة بالغيوم مع رعد وبرق ولا سبيل إلا للخوف والترقب. أخرجت هاتفها تجيب على اتصال ريحان:

- وعليكم السلام يا ريحان.. لقد خرجت من المنزل الآن، لستِ في المنزل!.. حسناً حسناً سأنتظرك في مكتبة الجامعة إذن.

وكعادتها لتهدئة نفسها؛ تمشت للوصول إلى الجامعة، أخذت تفكر في ذلك المنام الذي تحول إلى كابوس مريب، يبتلعها وكأنه ثقب أسود، وبدا لها رعب جديد آخر يهددها من بعيد لبعيد؛ ذلك الرجل قريب زوجة عمها الذي أصبح يتردد على المنزل كثيراً متى شاء، كم تكره شعورها بالضعف!. ظلت تبحث لمشاكلها عن حلول، وظلت تُسكن آلامها بدحض تلك الأفكار السيئة وجعلها سراب، والحلم بأيام جميلة آتية. دخلت المكتبة؛ المكان الذي يشبهها في الصمت الظاهر والضجيج

الداخلي بكافة أنواع الحكايات، نظرت إلى الطاولات الفارغة والكتب التي تسكن الأرفف بحزن، ولا تدري أأحست بالشفقة على أمة هجرت الكتب، أم بالسعادة لحظوها مكان خاص لها ولريحان صديقتها... ثم نظرت لمكان قصي في الزاوية مكان لا يلاحظه أحد غيرها كما كانت تعتقد؛ مكان ربما اكتشفه أحدٌ ما قبلها، ثم اكتشف فيه دموعها، دموعها العزيزة التي أبت أن تنزل أمام الجميع يوم زُف إليها خبر موت والديها، دموعها التي تأبى أن يراها أحد حتى وإن كانت ريحان، ولكن تلك المرة لم تأبى أن تنزل أمامه في ذاك اليوم؛ ومنذ ذاك اليوم أصبحت هي وريحان وطيفه في المكتبة.

دخلت ريحان من بوابة الجامعة الكبيرة بارتباكها المعتاد ورجفتها التي تخفيها بشدة، رجفتها التي حذرتها حور منها، تلك الرجفة التي ستشعل فتيل غريزة التسلط عند الآخرين وبمجرد ملاحظتها لن يرحمها أحدٌ منهم. ولكن سبق السيف العزل؛ فالرجفة لُحظت والتنمر والتسلط بدأ منذ السنة الأولى، ولولا الله وحور لكانت في خبرٍ كان. اتجهت ناحية المكتبة في خطوات هوجاء للوصول بأمان لحور دون أن يصل إليها أحد منهم ودون أن تنتبه اصطدمت بشاب طويل فتآوت بألم وهي تمسك برأسها التي لم تتحمل الإنصدام بجسده القوي... ارتعبت وتصنمت تنظر للأرض بلا حراك، لا تدري ماذا تفعل أو ما الذي سيفعله بها، تساءلت حتى انهارت أكثر وهو يهدر بقوة:

- هل أنتِ غبية! لماذا تتحركين بتلك العشوائية؟.. لقد كاد أن يتحطم النموذج الهندسي

- ...

تصنمها ورجفتها جعلته يهدأ هدوء أقرب إلى السكون، وهدأت جمرتان عينيه المشتعلتان، مُردفاً بحذر بعد أن صدر منها نشيج مكتوم:

- أنا آسف، هل أنتِ بخير؟!... لقد ظننت إنكِ..

لم يُكمل جملته لها بعد أن سمع صوتاً أنثوياً يبدو له مألوفاً، وتعرفه هي جيداً؛ يوترها ويخنقها، يصدح بغنج:

- أوه يا للهول.. هل أساعدك يا ظافر؟

رفع حاجبه الأيمن باستهجان ثم نظر إليها بكامل جسده قائلاً بلا مبالاة:

- لا داعي

لا تصدها ردوده الجافة ولا عدم مبالاته بها، وفي كل مرة تحمل له أسلحة أكبر لتستحوذ عليه وعلى انتباهه، لكن بلا فائدة، فتغتاظ لإنه لم يتغير معها حتى الآن ثم تُصر أكثر. اقتربت بغنج ودلال لثقتها الكبيرة في جمالها الفادح الفاحش؛ لتخبره إنها...، لكن أخرستها رؤية ريحان خلفه بلباسها الفضفاض التي تراه دائماً ملابس مهلهلة قذرة لا تنم عن ذوق رفيع المستوى ولا عن جمال، فهدرت بقوة:

- ماذا تفعل هذه القبيحة هنا؟!..ماذا تفعل خلفك؟

فاشتعلت جذوتي عينيه ثانيةً تهددها دون أن ينطق ببنث شفة بأن لا تتعد حدودها، ولكنها كانت الأكثر اشتعالاً فألقت نظرها على ريحان بغضب، تقترب منها بعنف وكأنها تريد نزع منها روحها وكأن ريحان انتزعت منها شيء في المقابل، شيء أرادت امتلاكه بشدة.

أوقفها بنبرة صوته الجشة القوية، عندما وجد تلك الريحان تنكمش أكثر مما كانت عليه، يعلو نشيجها أكثر وكأنها تختنق، ووجد شيئاً كان يُنفره من نفسه فيها، شيءٌ يكرهه بشدة:

- توقفي!.. اغربي عن وجهي ولا تجعليني أراكِ مرة أخرى... هل فهمتِ!

اتسعت عينيها لإهانته لها بهذا الشكل، وأمام من، أمام ريحان!، فدارت على عقبيها خاوية الوفاض ومُهانه ولكن عازمة على أن تُسقيه مرها طالما رفض رحيقها، وعلى أذيتها بأكثر الطرق إيلاماً.

نظر إليها مُغضن الجبين، يتأملها ويتأمل رعشتها وضعفها وتصنمها، فهتف بغضب مكتوم:

- لقد رحلت.. استرخي قليلاً، ولا تكوني بهذا الضعف والخنوع

نظرت إليه بعينيها النجلاوتين تغشاهما سحابات من الدمع. فارتبك قليلاً شاعراً بالحنق والشفقة مع رجفة غريبة في ذات الوقت جعلته يشيح وجهه في عدم رضا، مردفاً:

- كوني حذرة المرة القادمة حتى لا تصطدمي بأحدهم

ثم تركها وذهب وهو يتمتم بغضب: "يا لها من ضعيفة، كم أكره الضغيفات"

***

قلقت حور لتأخر ريحان كل هذا الوقت، فأخرجت هاتفها تتصل بها حتى وجدتها تدلف من باب المكتبة وهي ليست في حالتها الطبيعية، فأسرعت إليها وهي تسألها بقلق:

- ماذا حدث لكِ؟!

فنظرت إليها ريحان وقد انسابت من عينيها الدموع، اتسعت عينيّ حور بخوف وارتج قلبها بتوتر ونظرت إليها تحثها على التكلم، فنطقت بصعوبة تخنقها الكلمات:

- لمـ..ـاذا أخـ..ـاف دائماً، أنا أكرره الجبن و.و.لكني أكبر الجبـ..ـناء

قالت ما قالته وانسكبت الدموع من مقلتيها مدراراً، فاحتضنتها حور بقوة، تواسيها وتزيح عنها ألمها وخوفها، ورعشة جسدها المزلزلة. أخذتها إلى أقرب طاولة منهما وحثتها على إخبارها بما حدث، فحكت لها ريحان بما حدث، هبت حور واقفة بعصبية وهي تقسم إنها ستلقن تلك النرجس درساً لن تنساه، فأمسكت بها ريحان تمنعها بتوسل:

- أرجوكِ يا ريحان دعينا نبتعد عنها، أنا أريد أن أتلاشها، دعينا فقط نبتعد عن المشاكل
- ما الذي تقولينه يا ريحان، هذا خنوع!، يجب أن تتحرري من قيود الخوف وواجهي مخاوفك وجهاً لوجه وحطميها، تلك المدعوة نرجس تحتاج لمن يردعها، أو

بالأخص أنتِ من يجب عليها ردعها حتى تتوقف عن أذيتك.

فركت ريحان يديها في توتر بصمت، فأمسكت حور بكتفيها تشجعها وتبث بداخلها الأمان:

- واجهي ولا تخافي أبداً سأكون بجانبك

فأمسكت ريحان بيدها تستمد قوتها:

- ساعديني
- سأساعدك يا صديقتي

الإنسان لا يصير ضعيفاً في يوم وليلة، كل ما في الأمر إنه قد يتعرض لخيبات تهزمه وتفتته، قد يتعرض للعنف الجسدي وتُنتهك حرمة إنسانيته بداخله، وقد يواجه الفقد، وكل ما سبق يقع تحت بند الأذى، الذي يدفع الإنسان دفعاً ناحية الخوف الدائم والإعتزال عن الحياة، وريحان عُنفت وفقدت عندما خُطفت في سن العاشرة من أناس كان غرضهم الوحيد أذية جدها لأنه كان كالشوكة التي تؤرق مضجعهم، فلقد كان لهم بالمرصاد بالحق والعدل، فأرادوا تهديده بحفيدته الحبيبة

وقرة عينه، ولكنه لم يتحمل بعدها عنه بالأيام وهي تحت رحمة أولئك الوحوش وسماع صرخاتها المسجلة وهي تُضرب بالسياط حتى أُدمي جسدها فوقع صريعاً تحت وطأة الألم والشعور بالذنب، وأُمسك بالخاطفين وأخذوا عقابهم ولكن لم يؤخذ من ريحان الخوف والقلق من الناس.

***

شعر وكأن الشمس مُسلطة في عينيه والحرارة تلفحه من كل جنب وصوب، تقلب لينفض هذا الإحساس الوهمي عنه! ولكنه بالمقابل فتح عينيه على صحراء مترامية الأطراف بلا نهاية أو بداية، صحراء تحاوطه من كل جانب، تبتلعه وكأنه فيها حبة رمل...تشنجت عضلاته وهب فَزِعاً يدور بعينيه بخوف يسأل نفسه: ما الذي أتى به إلى هنا!، ما الذي يحدث؟. ركض ونادى كثيراً على أن يجيبه أحدهم؛ ولكن ما من مجيب، وسار وشعر إنه يسير لأيام، شعر بالوحدة والوحشة وهو رحال، ولكن تلك الرحلة تختلف فهي رحلة مهلكة ومقفرة على روحه، صحراء جافية لا تروي عين ولا ظمأ. طال به المسير حتى سقط مغشياً عليه ليفق بعدها على سرير النزل الذي يبيت فيه وهو يشهق ويسعل بشدة، نظر حوله ليطمئن نفسه بإنه استيقظ ولكن فاجأته بعض حبيبات الرمل على شرشف سريره، فاتسعت عيناه بدهشة، ولم يصدق ما رآه، فلم يعد هذا الكابوس الذي يتكرر طبيعيًا!، ثم وضع يده على رأسه وهو يتمنى ألا يكون قد جُن.

***

في حديقة واسعة غناء بكل أنواع النباتات والأزهار والورود من كافة الأشكل والأنواع، بداخلها تشعر إنك في جنة على الأرض فتشعر بالسلام مقسمًا بأن العالم مكان جميل ونحن فقط من نخربه!، وقف ظافر خلف رجل على مشارف السبعين ذو وقار وهيبة وحكمة؛ يناوله بعض حاجيات البستنة وهو في عالم آخر لا يسمع ما يقال له، فانتبه لشروده السيد حسان، ناهراً إياه:

- فيما أنت شارد يا ولد!

انتبه ظافر نافياً:

- لا شيء
- إذن تعال معي عند الريحان لنسقيه

اندفعت دماءه بعنف وهو يرفع حاجبه متعجبًا ومستمتعًا على ذكر اسمها، فسار خلفه ناحية الريحان يريد أن يراه وكأنه أثر سيقتفيه ليصل إلى حل لداخله الذى أبى أن يترك وجهها الذي حُفر في ذاكرته منذ شهران وهي ترفعه كقطة تموء تحت صاحبها لحمايتها، وصل للريحان ونزل على ركبتيه

يلمس أوراقه وزهراته يبث لها غضبه منها فهو يكره الضعفاء... حتى أفاق على يد السيد حسان تهزه هاتفاً:

- ما أمرك يا فتى!، هل أنت بخير؟
- بخير بخير!
- لا تبدو بخير، تبدو وكأنك غارق في شيء ما؟

صمت قليلاً يفكر، ثم أردف:

- ربما ولكنه شيء ليس بمهم

نظر له السيد حسان بخبث مردفاً:

- أظنه مهم، فأنا أرى شرر حماسك الملتهب يبرق في صفاء عسل عينيك يا فتى... لم أرى الحياة بعينيك هكذا كثيراً، لا شيء يجعل أي شخص هكذا إلا الحب، هل تحب يا فتى؟

صدمته كلمات السيد حسان، وجذوة من لهب اشتعلت بقلبه بجانب عقله الذى يأبى نسيان ريحانتين عينيها، فابتلع ريقه متلعثماً:

- حب!... ، أي حب يا جدي، كيف سيتملك مني من لقاء واحد فقط

ابتسم حسان بخبث:

- إذن كما توقعت، هناك فتاة ستسبل أغوارك وتخرجك من كهفك!

علت دقات قلب ظافر وارتبك، وكأن نفسه كُشفت أمامه، وتسائل: أيعقل هذا، لابد أن هذا هراء، ثم عبث متحدياً نفسه قائلاً لها: :بالتأكيد لا"، ثم نظر للسيد حسان نافياً:

- ربما ليس كما تتوقع يا جدي
- إذن دعنا نرى

وضع ظافر يديه بجيب بنطاله مؤكداً بثقة:

- دعنا نرى.

***

وقفت حور أمام زوجة عمها تهدر بقوة:

- لقد أخبرتكِ سابقاً يا زوجة عمي أن تبتعدي عن أشياء أمي

نظرت لها المرآة نظرة تستفزها وهي تصرخ:

- ترفعين صوتك عليّ وأنتِ في بيتي، تأكلين مما تصنعه يداي وتصرخين!، يا لجحودك، إنكِ فعلاً تُشبهين والديك

اتسعت عينيّ حور بغضب كاد أن يبتلعها ويبتلع معه كل شيء، واقتربت منها تندد وتهدد بهمس قرب أذنها:

- إن جرأتِ يوماً على التلفظ بأي سوء جذافاً، سأقتلك يا سلوى، سأقتلك وأضع جثتك على الطرقات تأكلها الكلاب

ارتعبت سلوى وارتعدت فرائضها وخرجت تفر من أمامها وهي تصرخ لزوجها:

- ابنة أخيك المجنونة تهددني بالقتل، افعل لتلك المجنونة شيئاً، احبسها، عذبها؛ لتكسر غرورها.. تلك المجنونة!

صاح الرجل في غضب وهو يسب ويلعن بعد أن ترك مباراة كرة القدم التي يتابعها، متجهاً ناحية غرفة حور يتوعد لها، ففاجأته حور بوقوفها أمامه بنظرتها الثاقبة والتي على إثرها اهتز قليلاً إلا إنه مد يده ليسحبها من شعرها، فأمسكتها وهي تهدر بقوة:

- إن فكرت لحظةً في مد يدك علىّ يا عمي؛ ستندم!، سأبلغ عنك الشرطة وسيحرمونك من الوصاية علىّ وعلى مال أبي الذي تعيش به أنت وزوجتك القذرة

شحُب وجهه وازدرد ريقه، وصاح بفتور رجل طامع محاولاً التماسك أمام تهديدها دافعاً بيده ليمسك بشعرها مرة أخرى:

- إن كنتِ تجرؤين أفعليها

فأزاحت يده بقوة وصلابة، وتحدي:

- سأفعل

ثم أمسكت بحقيبة يدها مردفة:

- وليكن في علمكما إنني سأصبح في الحادية والعشرين قريباً، لذا كونا جيدين واستمتعا بتلك الأشهر الثلاثة، أو قوما بخطأ واحد فقط وستحرمان منها كذلك، فلا تضيعا الفرصة

وخرجت من البيت، لكنها لم تكن بتلك الصلابة التي كانت بها بالداخل، كانت تمتلىء بالصدوع والكسور في كامل روحها، شعرت بأنها ورقة في مهب الريح لا يحتويها غصن في فرع لشجرة تمُدها بالقوت ليجعلها خضراء يانعة، ربما حل الخريف!، ولكن إلى متى ستنتظر الربيع بعد انقضاء الشتاء الطويل.

ولم يكن خروجها إلا فرصة لعمها وزوجته في التخطيط للكارثة التي ستحل عليهما، ولمعت فكرة في عقلهما ولكن بشرر شيطاني، فكرة اعتبرتها سلوى فرصة في الاستيلاء على كل شيء وليس المعاش وبعض الأموال التي تعتبرها بضع جنيهات متروكة في البنوك فقط، فهي تعلم مدى حرص والديها جيداً، ووافق عم حور بكل دناءة وكأنها ليست ابنة أخيه الذي لم يبخل عليه بأي شيء في حياته أو في مماته بعد

أن ترك له إرث منه له، ولكنه الطمع الذي يعمي قلب صاحبه ويسيل له اللعاب على ما لا يحق له.

***

وقف ظافر في النادي يكتم غيظه وغضبه بعد أن رأى والده أمامه بكل عجرفته المعتادة، ينظر إليه دون أن يرف له جفن، كما هو "عاصم الدهبي" رجل الأعمال ابن رجل الأعمال صاحب العز والمال والجاه، وهو الرجل الذي دمر حياة ولده صغيراً ومازال يسعى ليعكر عليه صفو حياته شاباً، اقترب الرجل ينظر إلى العرق المتصبب من جبين ولده، وعينيه المشتعلتين، وعلى ثغرة ابتسامة هازئة:

- ما زلت كما أنت، لا تليق بعائلة الدهبي

حاول ظافر التماسك، مكوراً قبضتي يده، مبتسماً بنفس الإبتسامة الهازئة:

- لا أريد... أنا فقط لا أريد أن أكون من عائلة الدهبي، ولا أريد أن أكون ابنك، ولا أريد مالك، ولا أريد رؤيتك بعد الآن

غض عاصم ما بين حاجبيه بغضب، ورفع يده ليصفع ظافر إلا أنا يد السيد حسان أمسكتها وهو ينظر له بشرر:

- إياك أن تفعلها، والله أقطع لك يدك يا عاصم، وأنت تعرف كيف!

نظر له عاصم بغل وغرور مردفاً:

- ومن أنت لتقف أمام عاصم الدهبي؟!
- حسان العلايلي، أظنك تعرف من أنا الآن

سحب عاصم يده بقوة من يد السيد حسان، ثم عدل هندامه، ومضى في سبيله دون أن ينطق بكلمة، فهو يعلم من هو حسان العلايلي صاحب أكبر شركات المقاولة في الوطن العربي، وصاحب محاجر الحجارة في سوهاج، ولكن ليس هذا فقط؛ فالسيد حسان يملك من المعارف والخبرة والحنكة في سوق الأعمال ما يجعله قادر على تحطيمه إن أراد، خاصةً بأن الأحوال هذه الأيام ليست على ما يرام معه.

نظر السيد حسان إلى ظافر الواقف يتصبب عرقاً وجسده الذي يهتز وكأنه بنيان أصابه الزلزال وعلى وشك السقوط، فأمسك بيده بحنو:

- دعنا نذهب يا بني

رجع ظافر بيته وهو في ذروة غضبه وجنونه، ولم يجد إلا منفسه الدائم والوحيد " كيس الملاكمة"، وقف عاري الصدر أمامه يلكمه بكل قوة أوتي بها، كان العرق يتصبب منه بغزارة، وأنفاسه تلهث بصوت كزئير الأسود، يزيد من لكماته كلما تذكر والدته وهي على الأرض تنزف بغزارة بعد ضَربها ضرباً مبرحاً، وصرخات الفتيات اللاتي انتهكت حرمات أجسادهن على يديّ والده وهو بلا حول ولا قوة، يتذكر المرات التي حاول فيها بكل قوته إنقاذ أمه و نجدة تلك الفتيات وكل مرة كان يلاقي فيها الضرب المبرح والحبس في الغرفة الخلفية للقصر لأيام خلا منها الزاد والماء ونور الشمس. ظل يصارع آلامه وماضيه حتى وقع على الأرض مُنهك القوة ثم أُغشي عليه. وفي الصباح الباكر استيقظ على صوت السيد حسان يوقظه وهو جالس أمامه مع صينية فطور شهية، نظر له ظافر بامتنان، ونظر للطعام ولكنه كان خائر القوة، ففهم السيد حسان وأطعمه بيديه، فبُعثت الروح مرة أخرى بجسده، ولم يلزم بعوثها إلا محبة صادقة ولطف

وحنو، وقد وجدها في يد السيد حسان، ذلك الرجل الذي أنقذه من الغرق في أعماق آلامه حتى يموت، فامتلأت عينيه بالدموع شاكراً الله على أولئك الطيبين الذين يرممون جروح وشروخ الروح أينما حلوا وأينما وضعوا أيديهم.

تماسك ظافر وتملك قوته مرة أخرى ليقف مرة أخرى على رجليه، ثم وقف أمام خزانته يخرج ملابسه ويحضّر أشيائه قبل الذهاب إلى الجامعة، فنظر له السيد حسان يثنيه:

- لترتاح اليوم يا ظافر
- الراحة عندي في التحرك والسعي والإنشغال يا جدي، لا أريد أن أفكر في ما حدث بالأمس... ولا أريد التذكر

أومأ السيد حسان برأسه متفهماً:

- حسناً يا فتى، وأعلم جيداً إنني خلفك وبجانبك كلما احتجتني

فابتسم ظافر ابتسامة آمنة وممتنة:

- لا حرمني الله منك يا جدي

خرج ظافر من بيته وفي خلده نسيان الأمس على قدر الإمكان، ليواصل الحياة والنجاح، يريد أن يكبر ويعلو حتى يستطيع مساعدة من يحتاج المساعدة، وحماية أولئك المستضعفين من بطش ممن هم على شاكلة والده. دخل كليته مسرعاً للحاق بمحاضرته ولكن توقفت رجليه عندما لمح طرف ريحان وهي تختبىء بعد ظهور نرجس المفاجئ، فرفع حاجبه بعدم رضا، واتجه إليها عازماً على مواجهتها، وقف أمامها بطوله الفارع مغتاظاً:

- أنتِ لستِ ضعيفة**!**، أنتِ ذليلة، لم أقابل يوماً إنساناً بهذا الجبن... كم أكره الذللين والجبناء

ثم تركها وذهب، ذهب ولم يرى الدموع المتحجرة بمقلتيها، لم يرى وجهها الذي انكمش من الحسرة، ولم يسمع قلبها يتحطم. ومرت ساعات الدوام الجامعي بسرعة ولكنها مرت على ظافر بتوءدة؛ لندمه على طريقته الجافة معها، وعلى تدخله فيما لا يعنيه، شعر بأنه كان قاسٍ؛ فكيف يحكم عليها وهو لا يعلم عن حياتها شيئاً أو عن ما عانته، وكم أراد بشدة أن يجدها مرة أخرى ليعتذر منها، أو أن يُعاد اليوم مرة أخرى ولا يهذي بما نطق به، ولكن ريحان لم تستطع

الصمود أمام كلماته القاسية التي كانت كالصفعات فوقعت فريسة المرض ورحلت تساندها حور إلى البيت... لكن رغم قسوة الكلمات إلا إنها جاءت في مصلحتها؛ تهدم جزء كبير من الخوف الذي يسكن قلبها، ذلك الخوف الذي تحول إلى مهانة وذل، وهي ليست من محبين المهانة والذل.

أقبلت السيدة هناء بلهفة على ابنتها وهى ترى في وجه ابنتها الوهن، وبقلق سألت:

- ما بكِ يا ريحان؟... ماذا أصابها يا حور!
- لا تقلقي يا خالة، لم يحدث شيء، كل ما في الأمر أن ريحان شعرت ببعض الحرارة والتعب فآثرت المجيء إلى البيت

نظرت السيدة هناء إلى وجه ابنتها وشعور بالقلق ينهشها، كيف لأم أن لا تعلم ما خطب أولادها وما بينها وبينهم عميق كحبل سُري آخر لا ينقطع، إذن كيف لا تعلم بنظرة واحدة أن فلذة كبدها محطمة، متآكلة من الخوف والقلق، ولكنها آثرت ألا تسألها الآن، فالبوح الآن كالضغط على الجرح بالمِلح،

وضعتها بمعاونة حور في سريرها ثم نظرت لها وهي تمسك خديها بيديها:

- سأتركك ترتاحين الآن، ولكن عليكِ تريحني فيما بعد

فأومأت ريحان لها بالإيجاب. سحبت السيدة هناء حور خلفها بعد أن أعطت لريحان الدواء وتركتها لتغط في نوم عميق، ثم جلست هي وحور معاً أمام التلفاز، وهذا الأمر عند حور عظيم يقع في نفسها موقع عظيم موقع الشبع بعد جوع في سفرٍ طويل، والسيدة هناء لا تبخل عليها أبداً بما يسد لها جوعها. فجوع الأمان أشد بأساً من جوع الأمعاء؛ فلا ألذ من زاد يحفه أمان، ولا شيء أتعس من تناول وجبة أو زفرة نفس في جو لا يشوبه الأمان، فالأمر سيصبح كالغصة دائمة الوجود. تحادثا سوياً عن أمور شتى ومن بينها تلك المشكلة الأخيرة التي وقعت في بيت عمها، فقالت لها حور ترمي لها بما يدور في خلدها وتهابه:

- أشعر أنهم يحيكون لي مخخط سيقضي عليّ

فعكصت السيدة هناء ما بين حاجبيها وهي تسألها:

- ما الذي يجعلك تفكرين هكذا؟

- لأن هدوءهم يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة، أقرأ ذلك في عيونهم، عيونهم تمتلىء بالخبث والضرر

أشفقت السيدة هناء على حور، فكيف لفتاة في مقتبل العمر أن تعيش بداخل صراع دون أن تتأذى وتمتلىء روحها بالخدوش، لماذا يصبح العالم قبيحاً هكذا في وجه الصغار!، ولكنها آملت أن تخرج حور من تلك الصراعات بالحكمة والخبرة التي سيجعلانها حور أخرى أقوى، فربتت على رأسها بحنو وأخذتها في أحضانها.

وفي الغرفة المجاورة كانت ريحان تصارع حية سوداء ضخمة في صحراء جرداء، رمالها لهيب وشمسها وكأنها على بعد عدة أمتار من رأسها، كاد أن يتوقف قلبها من رؤية تلك الحية تسعى خلفها، ركضت وركضت حتى انتهكت أنفاسها ووقعت على ركبيتها حتى أصبح لا مفر من المواجهة، إما تموت من شدة الإعياء قبل التهماها، أو تموت وهي تحاول إنقاذ نفسها لربما تعيش. اقتربت الحية حتى أصبحت تحاوطها وتعتصر جسدها لتهم بالتهامها فصرخت ريحان بقوة قابضة على رمال الصحراء اللاهبة بيديها، لتفق بعدها على سريرها وفي يديها قبضة رمل ظلت تختفي من بين يديها حتى دخول والدتها وحور عليها.

***

في قاعة المطار المليئة بالمجيئين والراحلين، أخذ حسن يتفرس في أوجه المسافرين التي كانت ما بين وجوم وفرح وحزن، مع كل وجه حكاية قد يُرى بعضٌ منها ولكن لا يعيش أحداثها إلا صاحبها. أخرج هاتفه وقام بالاتصال بالسيد حسان، فأجاب الآخر بلهفة:

- حسن!، هل أنت بخير؟
- بخير يا جدي لا تقلق
- لقد وددت أن أبلغك بقدومي إلى مصر

هلل السيد حسان مردفاً بارتياح:

- الحمد لله إنك قررت الرجوع يا فتى... هل علم ظافر بأمر مجيئك؟
- لا، أنت أول من يعرف يا جدي، سأخبره من بعدك
- ألن تخبرهم أيضاً برجوعك يا حسن؟!

صمت حسن صمتاً طويلاً قطعه السيد حسان مستطرداً:

- لقد زادت الفجوة بينكم يا حسن... لا أحد يلومك على ما حدث لفريدة.

تثاقلت أنفاس حسن لسماع اسمها يرن في أذنه، وشعر بغصة تعتصر قلبه، ينبثق أمام عينيه ذلك الحادث البشع الذي لم ينساه يوماً، شاهد مرة أخرى انقلاب السيارة به وبأخته بسبب قيادته المتهورة، ذلك اليوم الذي قرر فيه بعنجهية فارغة أن يسابق تلك السيارة التي طالما استفزه صاحبها كثيراً، كان الأمر عنده أشبه بالانتقام لرجولته منه، والآن أصبح يلعن نفسه على طيشه وعلى حماقته التي أودت بحياة أخته، أي رجولة كان ينتقم لها وأخته بجانبه يُعرضها للخطر، كيف يكن رجلاً حقاً والرجل الحق قائد يحمي ويصون، كان يجلد نفسه آلاف المرات والمرات، تمنى أن يموت هو ولا أن تموت هي، لم يعد يطيق البيت ولا النظر إلى نفسه في المرآة، وأخذ الترحال طريقًا للنسيان، طريقًا للنجاة من نفسه، ابتعد عن والديه وعن عائلته وأطال المسافات، وطالت المسافات أكثر وأكثر حتى أصبحت فجوة لهوة عميقة ولطالما حاول السيد حسان حتى ظافر في سد تلك الفجوة.

قطع السيد حسان الصمت وحاول أن يغير دفة الحديث إلى شيء آخر يشتته:

- هل انتهيت من كتابة الرواية الجديدة يا فتى؟

تنهد حسن مجيباً:

- نعم فعلت يا جدي
- أحسنت، أنا أنتظر أعمالك بشغف يا حارس العوالم، لم يسبق لي أن تعلقت بالأعمال الروائية إلى هذا الحد، أنت كاتب جيد يا فتى... لكن متى ستنشر أعمالك باسمك الحقيقي

ابتسم حسن بسعادة هذه المرة قائلاً:

- هذه شهادة أفتخر بها يا جدي لدرجة إنني سأعلقها على صدري وسام

ثم صمت مفكرًا قليلا في أمر النشر باسمه الحقيقي ليستطرد قائلاً:

- نشر أعمالي باسمي صعب عليّ كثيراً يا جدي، سأشعر بعدم الراحة عندما يعلم من يعرفونني، فبعدها سيقرأون ما أكتبه على إنه ما يدور في حياتي الشخصية وسيتلصصون عليّ، والناس فضولية إلى حد كبير لدرجة إنهم قد يمزقون الناظرين إليه بأعينهم المبحلقة، الباحثة، الناس في الفضول لا ترحم أحد

- أعتقد إنك على حق، كل من يعرفك سيبحث في كتاباتك عن حياتك، أعتقد أن السرية أفضل حل فعلاً

سمع حسن نداء طائرته، فقال للسيد حسان:

- عليّ الذهاب الآن يا جدي، أرجوك أخبر ظافر بأنني قادم فقد لا أستطيع مهاتفته
- حسناً، حسناً!، لكن أخبرني ما اسم الرواية الجديدة
- بئر برهوت

ثم انهيا الاتصال، ليتحمس السيد حسان لاسم الرواية، ويهم بالاتصال بظافر لإخباره بعودة صديقه للديار، ولم تكن حماسة ظافر أقل من حماسة السيد حسان، فحسن ليس مجرد صديق إنه أكثر من ذلك عنده كما السيد حسان أيضاً؛ كانا طوق النجاة اللذان أنقذاه من غياهب الجب الذي ألقاه فيه والده.

***

- صباح الخيرات يا ريحانتي المنعشة

ابتسمت ريحان بطفولة تقول:

- صباح الفل على حور العين

أمسكت الفتاتان أيدي بعضهما البعض وسارا جنبٍ بجنب إلى الجامعة... يقولون أن اللقاء نصيب، وتدور رحا الدنيا وتنشىء الظروف رياحاً تسوق أشخاص وتدفعهم دفعاً حتى يتلاقوا بأشخاص آخرين مقدر لهم اللقاء، وكلتا الصديقتان قُدر لهما اللقاء بعمر الحادية عشر، تقابلا في المدرسة، لم تكن حينها ريحان تستطيع تكوين صداقات منذ صغرها، كانت خائفة ومذعورة طوال الوقت بسبب حادثتها الأليمة التي أفقدتها الثقة في الناس، لكن دخول حور حياتها كان سهلاً مريحاً يشبه قطرات الغيث الذي أغاث قلبها من البور والصلد، بدأ الأمر عندما وقفت ريحان خائفة من الفتيات اللاتي يتنمرن عليها، كانت تهاب العنف والصراخ، وهذا ما كن يفعلنه معها، يحيون ذكريات الصراخ الأليمة والوجوه

اللئيمة في وجهها، وهذا كان يجعلها تدخل في حالة من الهلع والبكاء الهستيري، لكن هذه المرة جاءت حور من اللامكان وأمسكت يد ريحان بلين، تنظر لها بحنو، ثم أدخلتها حجرة الدراسة وأخذت حقيبتها وخرجتا أمام الفتيات اللئيمة، ومن هنا لم تترك حور يد ريحان ولم تفكر ريحان في تركها كذلك.

***

وصل ظافر أمام الجامعة بعد أن شعر بأنه يجب عليه زيارة الجامعة والبحث عنها قبل الذهاب إلى المطار لإصطحاب حسن، بحث عنها في جامعتها ولكن كانت لم تصل بعد، فوقف ينتظر وينتظر وهو يرتب أفكاره حتى رآها قادمة أمامه، تُمسك بيدها يد فتاة ما ويبدو من حميميتهما إنهما صديقتان مقربتان، اقترب منهما، ثم نظر لريحان بندم وقال:

- أنا آسف يا ريحان، لم أقصد أن...

فقاطعته بشجاعة وصلابة لم تعتدها ولم يعتد أحدٌ عليها منها:

- لا تأسف، كل ما أريده أن لا أراك مرة أخرى

نظر لها ظافر بصدمة غير مصدق، وتأمل ريحانتيها اللتان كانتا مختلفتان جداً عن أول مرة رآهما فيها، لم تكن كعينيّ قطة تموء لنيل الحماية، لقد شعر وأن بهما موج يثور، فابتسمت مردفة لتصدمه أكثر:

- لا تتفاجأ، الفضل يعود لله ولك

ثم تركته وذهبت، لتبتسم شفتاه ابتسامة مُعجبة صافية، وهو يلتفت وراءه ويقول بهمس: "جيد، حتى وإن كانت يداكِ ترتجفان!."

كذلك حور التي لُجمتها الصدمة، حتى إنها أوقفتها وهي تسألها مبتسمة، فرحة:

- ما هذه الشجاعة يا ريحان؟!، لم أعرفكِ بحق... أيضاً هل هذا ظافر الذى قصصتي علينا أمره

ابتسمت ريحان بفخر، ثم ردت:

- نعم، هو
- لماذا لم تقبلي إعتذاره؟، أشعر بأنه شخص جيد ولم يقصد أذيتكِ
- بصراحة!، لا أعلم... أو ربما كنت أريد أن أُظهر له قوتي، وأنني لست ذليلة كما قال.. وأنا لست نادمة

مرت بهما نرجس تنظر لهما شزراً، خاصةً لريحان التي أصبحت تضمر لها نوع آخر من الكراهية في الفترة الأخيرة، بادلتها حور بنفس النظرة وهي على وشك أن تنقض عليها، أما ريحان فقد اكتفت بأن أشاحت بوجهها ببرود عنها دون أن ترتجف يديها أو تنظر تحت قدميها بذل، تماسكت بقوتها التي كادت أن تخور من الخوف، تماسكت لأنها تكره جبنها وذُلها للخوف.

وما إن ابتعدت نرجس عن مسار عيناهما، حتى قالت لها حور:

- لقد بدأتِ تتغيرين حقاً يا ريحان، جيد جداً يا عزيزتي

ابتسمت ريحان بفخر وكأنها حققت إنجازاً، لكنها فترت سريعاً وهي تقول:

- ربما فعلت ذلك، لأنني أعلم إنكِ بجانبي يا حور، لقد فكرت في رد فعلي هذا دونك؛ ولقد ظهر لي إنني لن أستطيع فعلها
- تماسكي بالصبر على نفسك يا حبيبتي، فلن تتغيري في يومٍ وليلة، وفكري قليلاً؛ لقد كنتِ في السابق تخافين من النظر إليها أو إبداء أي رد فعل، لذا أقول لكِ هذه بداية جيدة

زفرت ريحان براحة وهي تبث الثقة في نفسها وتشجعها.

***

وقف كُلاً من السيد حسان وظافر ينتظران حسن وهما يتجاذبان أطراف الحديث، فقص عليه ظافر ما حدث اليوم مع ريحان، فابتسم السيد حسان يسأله:

- ألم تقل إنك لا تكن لها أي مشاعر؟

غض ظافر ما بين حاجبيه يرد:

- نعم، وهذا حقيقي!

فضحك السيد حسان يسأله:

- لماذا ذهبت للإعتذار إذن؟

فأجاب بثقة:

- لأنني لا أريد أن أكون سبب في كسر خاطر أحدهم، أو سبب أذى، وهذا ما كنت سأفعله مع أي أحد آخر غير ريحان!

ضحك السيد حسان أكثر ونظر إلى عينيه مباشرة وهو يقول:

- حقاً، إذن لماذا يغضبك ضعفها إلى هذا الحد الذي يجعلك تتدخل في حياة فتاة وأنت لا تخالط الفتيات؟

انعقد ما بين حاجبي ظافر بصدمة، وكأن كلمات السيد حسان صفعة دوى صوتها بداخل رأسه ليتسائل: لِما ريحان؟

ثم جاء سؤاله مرة أخرى علناً على لسان السيد حسان ليضرب أعماقه ويضطرب:

- لِما تحديداً ريحان يا ظافر التي شاء لها داخلك أن يغيرها، أن يتجه ناحيتها ويبث فيها غضبه منها، أو غضبه من أي شيء آخر، لِما هي تحديداً التي تظهر في عقلك؟

انفكت عقدة جبينه باستسلام وهو يعترف بأنه يكن لريحان شيئاً ما بداخله، شيء فيه ألفة وتقبل صريح لها؛ يجذبه لها ويجذب صورتها له، ثم عقد جبينه مرة أخرى بعد أن شعر بدقات دخيلة على قلبه لها إيقاع يختلف، ينشز عن باقي الدقات، فعزم على ألا يُدخلها في هراء حياته وظلام ماضيه، كيف يجعلها آمنة وهي تلك الرقيقة التي لن تتحمل ما قد تسمعه فقط عن والده وعائلته، كيف لها أن تعيش مع سليل لعائلة مخيفة كعائلته، وإن لم تخف ستمتعض وتهرب ظاننته وحش مثلهم.

- لماذا أنت شارد وعاقد جبينك هكذا؟!، من ينظر إليك يشعر بأن صدرك من الحزن لا يتسع لقيد أنملة... كنت أظن إنك ستسعد فور أن تدرك مشاعرك الحقيقية لريحان

- أليس هذا أمراً علىّ القلق بشأنه يا جدي، ألا تعلم يا جدي أنا ابن من ومن عائلة من، عائلتي تحيط بها الشبهات، إنها أقرب لرجال العصابات والمافيا، كيف لا أخاف على ريحان من كل هذا... أو ما الذي سيجعلها أن تقبل بي في يوم من الأيام!

انكفهر وجه السيد حسان حزناً وشفقة على ظافر، لكنه لن يستسلم في القيام بحمايته قائلاً:

- ظافر!، كن على يقين دائماً بأن عدل الله وسع كل شيء، كما رحمته يا بُني، الله عادل ولا يظلم أحداً، ولن يظلمك الله بذنب عائلتك، سيسخر الله لك جنوده ويسهل أمورك، أما عن حماية ريحان من أي أذى قد تتعرض له من عائلتك؛ فلا تخف، أنا هنا معك أحميها وأحميك منهم، وأنت تعلم ما أنا قادر على فعله معهم بفضل الله

ورغم تشجيع السيد حسان إلا أن وجه ظافر كان يملأه الأسى، إلا أنه لم ييأس من رحمة الله، فهو دائماً ما يرى النعمة بداخل النقمة والإبتلاء، ويشعر برحمة الله تحيط به في كل مكان ووقت وحين، لكنه كإنسان يشعر بالقلق والحيرة والخوف، ولكنه دائماً ما يسلم أموره لله. كان الاثنان يقفان وجهاً لوجه أحدهما يواسي والآخر يتلقى المواساة برحابة صدر، حتى فاجأهما صوته الرخيم يسأل بقلق:

- ما الأمر؟!، لِما أنتما حزينان هكذا؟

التف الاثنان اتجاه صاحب الصوت بلهفة، وهما يناديان اسمه في صوت واحد:

- حســـــــن!

ابتسم لهما بحب واشتياق:

- نعم، إنه هو بلحمه وشحمه

سلم عليه كلاً منهما سلاماً حاراً، وسألاه بشغف عن حاله، ونظر السيد حسان إليه نظرة الأب متفحصاً صحته وشكله، وتصفحه ظافر تصفح الأخ والصديق والعشيرة. بعد تبادل

السلامات والسؤال عن حاله خرجوا للخارج واستقلوا السيارة، ثم قال السيد حسان لحسن بجدية يشوبها الرجاء:

- يجب عليك أن تذهب للبيت أولاً، ثم نجتمع في الغد عندي على الغداء

خفق قلبه حُزناً وشوقاً، لقد أشتاق لعينين أمه وبسمة والده الصافية، ولكنه يخشى النظر إليهما؛ فيجد فيهما رفضٍ له أو خزي وعار منه، لقد احتار بين أمرين ولكن غلبه الشوق إليهما أكثر، فأومأ موافقاً:

- حسناً يا جدي

ابتسم كلاً من ظافر والسيد حسان براحة، ثم قال ظافر بفضول وتشوق:

- أين كنت هذه المرة يا حسن؟، لقد كان الاتصال بك صعب في بعض الأحيان وكنا نقلق عليك كثيراً
- كنت في اليمن الحبيب، الله يفك كربهم ويعزهم

فتنهد السيد حسان بحزن وهو يقول:

- حال هذه البلد يحزنني، اليمن حضارة عريقة مليئة بالخيرات، يكفي جزيرة سقطرى التي سميت بجزيرة السعادة نظراً للخيرات التي تملؤها، والآن كيف أصبح الحال!، أهلها جوعى، ويموتون بالآلاف على أيدي الطامعين ورصاصهم الغدار، وأهلها لا يستحقون ذلك فهم أرق أفئدة والألين قلبًا، الإيمان يمان والحكمة يمانية؛ كما قال رسولنا الكريم ﷺ

فابتسم حسن في أسى:

- سقطرى وما بالك بسقطرى، لؤلؤة اليمن وجزيرة النعيم، تلك الجزيرة تحتوي على كل عجيب وغريب، والأندر من النباتات والأشجار والطيور والزواحف، إنها من خارج العالم وكأنها خيال، ولكن للأسف الكل طامع فيها، يأتون بغرض حمايتها وتوفير الخدمات لأهلها ولكنهم يسعون لسرقتها فقط، وبالفعل تمت سرقة العديد من شجر دم الأخوين التي لا يوجد في العالم مثلها إلا في سقطرى اليمنية

تأثر ظافر فقال متمنياً:

- أتمنى أن تنتهي هذه الحرب، أتمنى أن يجد الشعب متنفس للعيش بكرامة دون هوان، وكم أتمنى أن يهلك الظالمون الفاسدون الذين يدمرون آلاف البشر لأجل إرضاء نزواتهم وإشباع طمعهم الذي لا يُشبع أبداً.. لا أصدق كيف لهولاء أن يكونوا بلا روح وعقل، كيف لهم أن يمدوا أيديهم للأعداء ليتسلحوا ويدمروا بلدهم ويقتلون أهلهم لأجل المنصب الذين إذا أبصروا فيه وجدوا إنهم لا يملكونه بل أعدائهم وهم فقط الدمى، إنهم أغبياء!

رد حسن:

- أتمنى ذلك من كل قلبي أيضاً، فاليمن غالي وأهله غوالي، ورسولنا الحبيب ﷺ قال أيضاً فيها" إني لأجد نفس الرحمن من هاهنا وأشار لليمن"، وأيضاً " إذا مر بكم أهل اليمن يسوقون نساءهم ويحملون أبنائهم على عواتقهم فإنهم مني وأنا منهم"

ثم صمت الجميع إلا من بعض التنهيدات التي ينشق لها الصدر ليزفر بما فيه من حسرة وألم على ضعف وقلة حيلة.

وقفت السيارة أمام منزل حسن، فودعه كلاهما، وتركوه وهو على قارعة الباب. قرع حسن جرس الباب وقلبه هو الأخر تقرعه الطبول، فسمع صوت والدته تسأل من بالباب، فزادت طبول قلبه قرعاً وهو يجيبها:

- أنا حسن يا أمي

فظهرت اللهفة على نبرات صوتها الحنونة وهي تسارع إلى فتح الباب بشوق كبير لفلذة كبدها، وعندما رأت وجهه؛ تفتحت عيناها كما تتفتح الزهور بهجة وحياة وكأنه الربيع، وأحتضنته تشتم عطره وكأنه هو الوردة وهي الربيع. تحسست وجهه ونظرت إلى جسده تتفحص صحته، ترى هل نَحُل فتطعمه أشهى الأطعمة، أم سمُن، هو كذلك كان يشعر بعد رؤية أمه إنه قد عاد حقاً إلى موطنه، ثم صمتت قليلاً لصمته وتردده وبضع رجفات من يده وكأنها تستقبل زائراً أخر معه، ورأى هو شبح ذلك الزائر في عينيها، ثم نظرت له بشفقة وقالت:

- كيف حالك يا حسن؟، ولماذا غبت كل هذه المدة يا بني، لقد قلقت!

ابتسم حسن معتذرًا بلوعة:

- آسف يا أمي ولكني كنت أحتاج وقتاً أطول هذه المرة.. وأنا بخير الحمد لله فلا تقلقي
- أرجوك يا بني لا تغب عني كثيراً بعد الآن، لا تجعلني أقلق
- إن شاء الله يا أمي
- ادخل واذهب إلى أبيك ليعلم بقدومك، إنه في غرفة مكتبه، وأنا سأحضر لك بعض الطعام الشهي
- لا داعي يا أمي لتحضير الطعام فلست جائعاً، سأدخل لأبي وبعدها سأذهب لغرفتي لأرتاح بعد عناء السفر

حزنت وظهر ذلك على وجهها، فكيف لأم أن لا تُطعم ولدها الغائب فيض كرم يديها، وأن لا تُشبع عينيها من رؤيته، وألا تسمع صوت تنفسه حولها بعد غياب، لكنه جبر خاطرها وراضاها قائلاً:

- لكنني سأستيقظ معكِ عند الفجر وأرافقكِ في المطبخ ونشرب الشاي في الحديقة وسأقص لكِ روايتي الجديدة

فابتسمت برضا نفس وخاطر، فولدها الذي أصبح وحيدها يسابق إلى إرضائها، حتى وإن كان تنفيذ ما قاله سيذبحه، لأنه حتماً ستهاجمه الذكريات، فكل مكان بالمنزل معبأ بذكريات ستوؤل إلى حزنه، فأجابته بحنو:

- شكراً لك يا بُني

دخل حسن إلى المنزل وهو ينظر حوله في تؤده، ارتفعت ضربات قلبه في ضيق، ثم اتجه إلى غرفة مكتب والده وهو يشعر بأن قدميه تخطو للخلف أكثر منها للأمام، ففي كل مرة يرى التغير الذي أصاب والده من النحول الذي أصبح عليه وجهه، والشيب الذى غزا رأسه بكثرة، والعين المشتتة، والروح التي اجتز منها الكثير، ينحرق بألم، فكل هذا نتيجة خطأه هو، ألم الفراق الذي أصبح يحتل هذا البيت ويعشش فيه كان سببه هو، لذا كان عليه أن يعاقب نفسه، يجلدها بالبعد عن كل ما يحتاجه من عائلته، كان يرى نفسه لا يستحق حب والديه بعد هذه الحادثة، ولا حب نفسه لنفسه،

يرى أنه يجب أن يُنفى. وقف أمام الباب، وأخذ نفساً عميقاً، وأخذ يدق الباب ثلاث دقات متواليات كعادته قديماً، لكن توترت يده ونشزت عن عزف أنشودة الدقات الثلاث، انتبه على إثرها والده الذي قام من مجلسه بعينين متلألأتين وهو يأذن للطارق بالدخول:

- ادخل يا حسن

تشنجت أطرافه، ودخل يرتجف لأن يرى أبيه كما هو، وكما توقع وشعر، نظر في وجه أبيه ليشعر بالذنب أكثر وأكثر، وشعر بأنه لا يستحق الحياة لأنه سلب حيوات أحبائه. وقف أمام أبيه وقد تقلص حجمه حزناً، فسأله والده:

- كيف كانت رحلتك يا حسن؟
- لقد كانت جيدة يا أبي
- وكيف حالك؟
- بخير الحمد لله

نظر له بتمعن واقترب منه وعلى ثغره ابتسامة صافية وحقيقية لكنها نوعًا ما باهتة ، ثم ربت على كتفه، واقترح:

- لابد أنك تريد أن ترتاح قليلاً من عناء السفر

- نعم
- إذن اذهب إلى غرفتك وارتاح قليلاً، وفي الغد سنجتمع سوياً على الفطور
- إن شاء الله.. شكراً لك يا أبي

خرج حسن من غرفة مكتب والده متوجهاً إلى غرفته وعينيه تأبى أن تنظر إلى كل زوايا البيت وأثاثه، ولكنه عندما مر على غرفة أخته توقف وهو يتذكرها تقف أمام بابها عندما يمر عليها، تهتف باسمه وتناقره، تذكر كم كانت ابتسامتها لا تفارق ثغرها فتزيد بهجة عائلته بهجات، والآن قد اختفت البهجة مع ابتسامة ثغرها وتركت فراغاً لهم قاتلاً، ووحدة لا تفارقهم أبداً وبعدٍ جافٍ، ثم دخل غرفته ويداه ترتعشان، نظر إليهما وتخيل مقود السيارة في يديه، وشعر بالحادث وأنفاس أخته تتلاشى بجانبه، فأغلق عينيه قسراً للهرب مرتمياً على سريره. وضاع في صحراء شاسعة، يبكي وتئن قدميه من التعب، يركض في كل اتجاه يصرخ كالمجنون: "هل من أحدٍ هنا؟!.. هل تسمعونني؟!"، حتى سقط وهو يلهث كأنه سيموت، ثم تراءى له خيال إنسان يأتي من بعيد، فتخفت شدة

لهاثه شيئاً فشيئاً، وكلما اقترب منه الخيال كلما هدأت روحه وظهرت معالمها، أنثى!، ولكن لا تظهر ملاحمها، تمد يدها إليه، تخبره شيئاً لا يسمعه، ثم استيقظ على قرآن الفجر ووالدته تطرق بابه. دخلت والدته لتراه في حالة يرثى لها، يتصبب عرقاً، وأنفاسه متقطعة، فاقتربت منه بقلق تسأله بلهفة:

- ما بك يا حسن؟، هل تشتكي من ألمٍ ما؟

بلع ريقه بصعوبة وهو يطلب بعض الماء، فناولته أمه كوب الماء، تجرعه كله مرة واحدة دون تريث، ثم طلب مرة أخرى، فناولته مرة أخرى وهي تتعجب بخوف لحالته، وبعد أن تجرعه نظر إليها وقال:

- لقد صرت أفضل، لا تقلقي
- لا أظن ذلك يا حسن!، أنت لا ترى وجهك لكنني أراه.. دعنا نذهب للطبيب

ابتسم بحنو ممسكاً بيديها وقال:

- إنه مجرد كابوس لا أكثر يا أمي
- ماذا كان فيه؟!

- أحلم بصحراء لا أول لها ولا آخر، أركض فيها دون جدوى

نظرت له والدته بحب ممزوج بشفقة وهي تضع يديها على وجنتيه تربت عليها:

- أنت تحتاج للابتعاد عن العزلة يا حسن، أرجوك يا حبيبي كن معنا ولا تسافر كثيراً وتغيب كما تفعل، يكفي ترحال يا بُني

أومأ برأسه لأمه يريح لها بالها، وهو يقول في قرارة نفسه: "لا أستطيع يا أمي، لا أريد أن أتذكر، لا أريد أن أنظر بعينيكِ أنتِ ووالدي وأرى الحسرة والحزن، لا أستطيع مجابهة جرمي وذنبي الذي عشش في البيت كأعشاش العنكبوت كل يوم؛ ليذكرني إلى أي مدي سرقت بهجة البيت". ثم قاطعه صوت آذان الفجر؛ فقاما للصلاة.

وفّى حسن بوعده مع والدته، وجلس مع والده أيضاً، ثم استأذن منهما بعد قضاء الوقت معهما:

- لقد دعاني السيد حسان أنا وظافر على الغداء عنده، وقد وافقت، فأرجو ألا يكون عندكما مانع

فرد والده:

- لا يوجد مانع يا حسن، اذهب واستمتع بوقتك، وأبلغ سلامي للسيد حسان

- إن شاء الله سأفعل

وقالت السيدة فريدة:

- كنت أود أن تتناول الغداء معنا، ولكن من الواجب تلبية الدعوة

- تعوض يا أمي لا تحزني

ثم قام من مجلسه، فأردفت مسرعة:

- لا تتأخر يا حسن

- حسناً يا أمي

خرج حسن من البيت على بيت السيد حسان، وفي خطواته حماس. دخل إلى البيت فوجد كلاً من ظافر والسيد حسان يتممان وضع الأطعمة على طاولة الطعام، فقال له ظافر يمازحه:

- مرحباً بالأمير الوسيم، الذي سيأكل هذا الطعام الشهي في طرفة عين دون أن يُدرك تعب يديّ ظافر وظهره وقدميه ورأسه

فضحك السيد حسان على كلماته، وابتسم له حسن في مكر، ثم قال السيد حسان:

- أي تعب تتحدث عنه، فماذا ستقول إذا وقفت في المطبخ كما تقف أي إمرأة؛ تحضر طعام المنزل رغم إن لها شئون أخرى كأولاد وعمل وأحياناً دراسة، وباقي أعمال المنزل، ولا تنسى إنك كنت مساعدي فقط ولم تقم بالمجهود الأكبر

تقوص فمه بحزن يقول:

- سأبكي، أعانهن الله... ولكن يا جدي لقد تعبت حقاً، يكفي البصل! فلقد ذرفت دموع تكفي لحياتي كلها

فضحك الاثنان وتبعهما مقهقهاً، ثم جلسوا جميعاً حول طاولة الطعام وقاموا بالأكل. كان حسن هذه المرة متحرراً من قبضة الحزن والخجل، فأكل بشراهة وكأنه لم يأكل منذ زمن، وتعالت ضحكاته بنهم للسعادة، دون أن يدرك أن

اختيار السعادة سهل جداً حتى وإن كان الإنسان ملىء بالثقوب ومحمل بالأعباء والأحزان، فالإنسان الذي يختار السعادة يقاوم ويدعو ليتحرر، وما يفعله هو اختيار الوحدة والحزن قرباناً لذنبه الذي لا يغتفر؛ فيعيش تعيساً إلى ما قُدر له عمره، ولكن في الحقيقة ودون أن يدرك يسرق من بعض لحظات السعادة ما يكفي حاجته ليعيش، كالذي رمي نفسه في المحيط ولكنه ظل يقاوم الغرق.

بعد الانتهاء من الغداء، التف الثلاثة حول طاولة في حديقة السيد حسان الغنّاء بكل النباتات العطرية والزهور الملونة، فأُسرت البهجة في قلوبهم أنهاراً لجمال صورة الحديقة التي تنفك أمامها أعتى نظرات التهكم والعبس. رشف السيد حسان رشفة من كوب شايه المنعنع وهو يطلب من حسن:

- أخبرنا عن رحلتك في اليمن

ابتسم حسن بهدوء مجيباً:

- كانت جداً مُرضية، لقد زرت سقطرى وخطفتني إلى عالم آخر عجيب ومريح، زرت الأماكن الأثرية لليمن

أولها كانت مدينة صنعاء القديمة، إنها مدينة جميلة بمبانيها ذي الرسوم المميزة، لقد مكست فيها يومان رائعان، ثم من بعدها مدينة عدن ومعالمها، ومدينة تعز التي زرتها خصيصاً لرؤية شجرة الغريب والتي تعرف أيضاً "بالكولهمة"

- لقد سمعتك تتحدث عن تلك الشجرة في يومٍ ما بحماس، ولم أتذكر إنها في اليمن، هل كانت تستحق كل هذا الحماس
- إنها حقاً عجيبة من العجائب، طولها وحجمها ولونها وحجم أفرعها، الناظر إليها يُفغر فاهه، ويقال أن عمرها يناهز الألفي عام، ويكفي الأسطورة المقترنة بها

فقال السيد حسان بانبهار:

- أخبرنا عن تلك الأسطورة
- يقال أن تلك الشجرة تثمر ثلاث ثمرات صفر لا يعرف لها نوع في موسم الثمر، ثم يأتي رجل عند منتصف الليل يقطف تلك الثمرات دون أن يعرفوا هويته حتى الآن، وهذا ما قاله أهل تلك المنطقة على مر السنين من جيل إلى جيل، كذلك الحارس الحالي لتلك الشجرة

صدق على تلك الرواية عندما رأى رجل غامض جاء في منتصف الليل وأخذ الثلاث ثمرات، لكنه لم يستطع اللحاق به، وقال إنه ظل يناديه ولكنه لم يجب

فغر كلاً من ظافر والسيد حسان عيناهما وهما في أشد حالات الفضول، فابتسم حسن على حالهما وأردف:

- هذه قصة شجرة الغريب أو "الكولهمة" كما يناديها أهل اليمن

فتحمس ظافر أكثر:

- أخبرنا إذن عن شجرة سقطرى المعروفة

نظر حسن في الفراغ وهو يوصفها كأنها أمامه:

- سبحان الخالق الذي أبدع، إنها شجرة لن ترى لها مثيل في العالم كله، تشبه المظلة المقلوبة عندما تفسد دعائمها فتنقلب، فتكون الأوراق الكثيفة فوق الفروع المتشابكة وكأنها وصلات من العروق في شكل بديع، وتثمر ثمر يشبه التوت باللونين الأحمر والبرتقالي تأكله الطيور

فابتسم كلا من ظافر والسيد حسان في انسجام مع وصف حسن وهما يتخيلانها، ثم أكمل وهو ينظر إليهما بشغف:

- وهناك حكاية خاصة بها أيضًا، يقولون أن تلك الشجرة نبتت من دم أخان تصارعا فقُتل أحدهما، ويقول البعض أن هذان الأخان هما قابيل وهابيل، وهناك حكاية أخرى؛ فالبعض الآخر يقول إنها نبتت من صراع فيل مع تنين، وسبب تلكما الحكايتين؛ خروج راتنج يشبه الدم المتخثر

صاح ظافر بحماس:

- يا الله، ما كل هذه الإثارة، لقد أشعلت فيَ روح الفضول، يوماً ما سأذهب لليمن

فوافقه السيد حسان متحمساً:

- أنا أيضاً

ثم نظر إلى حسن مستطرداً:

- بقى معلم واحد متأكد إنك ذهبت إليه، رغم إنك لم تذكره أولاً، إلا إنني أعلم أن ذلك المعلم هو غايتك منذ البداية

فنظر له حسن بإبتسامة غامضة:

- بئر برهوت

فقال ظافر متعجباً:

- الذي به أشر ماء على ظهر الأرض كما قال رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام
- نعم، هو
- هل وجدت ما بحثت عنه هناك يا حسن؟

أومأ حسن برأسه، وعلى ثغره ابتسامة تعبة:

- نعم، وجدت يا جدي

فظهرت بوادر القلق في قلب السيد حسان من جديد والتي ظن إنها ستهدأ.

- يقولون أن بئر برهوت تتجمع فيه أرواح الأشرار، والآثمين والظالمين، والأشد كفراً، وهناك من يقول أن بئر برهوت هو سجن الجان؛ حفره الجن ليقوموا بسجن الجان الذين لا ينفذون الأوامر، وقيل أيضاً أنه تم حفر ذاك البئر بأمر من أحد ملوك الحميرية لأتباعه من

الجان والشياطين ليضع به ثورته وأملاكه، وهناك من بقول أن بئر برهوت هو البئر الذي ستخرج منه النار التي ستدفعنا إلى أرض المحشر في فلسطين

فتسائل ظافر:

- لماذا لا ينزله أحد ويستكشفه؟
- لقد تم الأمر بالفعل؛ عندما قرر أحد موظفي شركة خط الصحراء رغبته في النزول للبئر واستكشافه، زوده زملائه بحبل من معدن وكاميرا لتوثيق لحظات نزوله للقاع، وتم إنزاله حتى وصل لعمق مئة متر من البئر ولكنه سرعان ما صرخ وطلب سحبه بسرعة من البئر، وعندما خرج سألوه عن سبب صراخه هكذا؛ فأجابهم بأنه رأى حلقة البئر كادت أن تغلق عليه، وأكثر ما صدمهم أن الكاميرا لم تصور إلا الظلام رغم وضوح الرؤية والتصوير بذلك الوقت من البئر، ولكن هناك قصة انشهر بها هذا البئر أكثر وكان هذا منذ قديم الزمان؛ عندما نزل رجل من بين ستة رجال إلى البئر بعد ربطه بحبال لجلب الماء، وجلب الرجل بالفعل الماء على ثلاث مرات ولكن في المرة الرابعة طال مكوثه

في الأسفل وعندما قلقوا نادوه ولكنه لم يستجب، وفجأه شعروا بأن قوة أقوى منهم جميعاً تسحبه إلى الأسفل مع صرخاته العالية، حاواوا بكل قوتهم في سحبه، ولكن كانت انقطعت صرخات الرجل وعندما سحبوه وجدوا نصفه العلوي فقط والجزء السفلي اختفى ولم يجدوا أثار أنياب أو أداة حادة، بل كانت أثار حرق بالنيران!، مما جعل هذا البئر مصدر نفور لليمنيين، غير الرائحة والأصوات التي تخرج من هذا البئر

- وأنت ذهبت إلى هناك؟!
- نعم
- وماذا وجدت؟
- لم يقابلني هناك إلا الرائحة النتنة التي كانت تنبعث من البئر أحياناً، ولكن كانت هناك وحشة استشعرها دائماً بالمكان، وثقل بصدري، ولكن كانت الأجواء مفيدة لإكمال روايتي بالشكل الذي أريده

فقال السيد حسان:

- الحمد لله إنك أتيت من هناك بالسلامة

فردد ظافر وهو يقترب من صديقه يناقره بيديه:

- الحمد لله

***

وقفت الفتاتان أمام منشور معلق على جدار الجامعة، يقرئان ما كُتب فيه.." تعاون جامعي بين طلاب كلية الهندسة بتخصصاتها الميكانيكية والكهربائية والروبرتات وعلم البرمجة والصناعية، وطلاب كلية الألسن للمشاركة في المسابقة العالمية بين الجامعات"، " كما أن هناك مسابقة تخص المبدعين في مجال الكتابة، يشرف عليها مجموعة من المؤلفين والروائيين الذين سيقومون بتعليم مبادئ الكاتبة، ثم سيقومون بعمل مسابقة بين المشتركين والفائز ستنشر روايته مع أكبر دار نشر في البلاد"، ونظرًا لجهود المشاركين ووقتهم سنقوم بعمل رحلة خاصة إلى أراضي الفيوم بكل مناطقها ومعالمها على نفقة الجامعة حتى وإن لم يكن الفوز من نصيبنا، وكذلك الفائزين من المسابقة الثانية"

نظرت الفتاتان لبعضهما البعض والحماس يملىء عيناهما، فهتفت ريحان:

- لنشترك

فهتفت حور بحماس بسعادة:

- هيا بنا، لكن هل ستشاركين في المسابقة الأولى؟!؛ فأنا أعلم إنكِ لا تجيدين الكتابة ولستِ شغوفة بها

أومأت لها ريحان بإبتسامة واسعة:

- نعم سأشارك بها!
- حقاً حقاً
- نعم!
- لقد بدأتي تتغيرين حقاً يا ريحان، كم أنا فخورة بكِ جداً يا صديقتي، وكم أنا سعيدة إنك ستقومين بأشياء كنتِ تحلمين بها
- بصراحة أنا لم أتخلص من خوفي كاملاً، ما زلت خائفة من المشاركة في شيء لن تكوني معي فيه وبه أناس غرباء عني... ولكن أريد أن أجرب وأعيش، لا أريد أن يقتلني الخوف

ابتسمت حور وأمسكت بيدها تشجعها فابتسمت ريحان كذلك، إلا أن وقوف نرجس مع ذلك الشاب ونظراتهم التي تبتلع كلاً منهما خاصة ريحان أدخل القلق إلى قلبيهما، فنظرت حور إلى ريحان وهي تقول:

- هذا الشاب الذي مع نرجس يقلقني وجوده، أشعر أن الاثنان يكنان لنا شيئاً سيئاً

- هذا نفس شعوري يا حور، لقد قالت لي مراراً إنها ستنتقم مني... ولكن لا أدري لماذا؟، وماذا فعلت لها لتكرهني هكذا؟

- لم تفعلي شيء يا عزيزتي، هي إنسانة ناقصة؛ وأنتِ ومَن مثلك من الفتيات الجميلات تشعرونها بنقصها وإلى أي مدى هي قبيحة بجانبكن لذا هي لا تترك أي فرصة في مضايقتكن لتشعر هي بالراحة والخيلاء، إنها مريضة السريرة، تتغذى على ضعف الآخرين لذا ستظل قبيحة حتى تتغير

ابتسمت لها ريحان ثم قالت لها:

- أتمنى أن تتغير في يوم من الأيام!

- وأنا أيضاً

- هيا بنا لنسجل

- هيا

***

وقف ظافر بجانب حسن وهو يقول له:

- هل ستشارك في المسابقة الأولى أم الثانية؟
- لا أود المشاركة، ولكن دار النشر طلبت مني الحضور لتقييم الكُتاب من طرف خفي.. وأعتقد أنني أود القراءة لبعض الأقلام الجديدة.. ستشارك أنت؟
- بالتأكيد؛ فأنا الأول على الدفعة، لذا يجب علىّ المشاركة، لكن غير ذلك أنا متحمس
- أعلم إنك ستُبدع

فابتسم ظافر بحماس:

- سوف أبهرك

بعد أسبوعان من انتظار الطلبة المشاركين، عُلقت النتيجة بأسماء المقبولين في المسابقة الأولى، وأسماء جميع المشاركين بالمسابقة الثانية. وكان اسم كلاً من ظافر وريحان متصدران قائمة الأسماء فكلا منهما الأول على دفعته.. وقف ظافر أمام المنشور وهو لا يصدق إنها من المشاركين بل من

المتفوقين أيضاً؛ فابتسم، لكن سريعاً ما اختفت ابتسامته متأففاً بعد سماع صوت نرجس الذي يشبه فحيح الأفاعي وهي تقول له وعلى وجهها أبشع نظرات الخبث والمكر:

- هكذا إذن!

انعقد ما بين حاجبيه وهو ينظر إليها باشمئزاز، فأردفت تبث سُماً وضلال:

- هذه التي تُسمى ريحان لم تكن سهلة وبريئة كما توقعت، ماذا أعطتك أو فعلت بك لتهتم بها هكذا وتتقرب منها إلى هذا الحد؟!

وفي سؤالها الذي يحمل في حنياه ظُلماً وقذفاً؛ جن جنون ظافر واشتعلت نيران غضبه، فصاح بها غير مبالياً بالجمع الذي حولهم والمكان اللذان فيه وهدر:

- لسانك هذا يجب قطعه ليسلم الجميع من شروره

صُدمت من ردة فعله وبُهت وجهها، ثم أكمل وهو يتوعد ويحذر:

- ابتعدي عنها لأنني لن أتحمل أن يُظلم أحد ويقذف باتهامات دنيئة كقائلها بسببي، وابتعدي عني أيضاً فأنا لا أطيقك ولا أطيق سماع صوتك البغيض

ثم تركها وذهب وهي في حالة ذهول واحتقان من الغضب، وذهبت بعد أن وجدت الجميع ينظررون إليها ويتهامسون، وهي تجر خلفها أذيال الخيبة والحقد والغضب.

***

قبل أن تدخل ريحان إلى القاعة التي ستتعارف فيها على زملاؤها أخذت شهيقاً كبيراً وزفرت عدة زفرات لتقلل من توترها، ولبرهة ندمت إنها شاركت في مسابقة لا تشارك فيها حور، ولكن نفضت هذا سريعاً من رأسها وهي تقول بحزم لنفسها: "لقد نويتي التغير يا ريحان، لا سبيل للرجعة الآن، ادخلي وكوني طبيعية وقوية فلن يأكلك أحد"

تشنجت قدميها جراء التوتر فور دخولها إلى القاعة بعد أن رأت عدداً كبيراً من الطلاب، فريق مكون من عشرين طالباً وأربع طالبات هي خامستهم، وما زاد الطين بله عندها

نظراتهم جميعاً إليها في وقت واحد ليشحب وجهها وكأنها كالأموات، حتى أنقذها ظافر بدخوله المدوي الذي جعل القاعة كلها تنظر إليه وتتفاعل معه، فأتخذت هي مجلساً بجانب الفتيات بهدوء دون أن يشعر بها أحد، لكنه الوحيد الذي كان يشعر بها ويلاحظها لينقذها من أسوء لحظات توترها، لم يمد طرفه إليها ولم يكن ينظر إليها كثيراً، كان كأنه لا يعرفها على الإطلاق ولكن كانت خلاياه تستشعرها كمجسات وتراقبها في كل ثانية تنبهه بكل حركة وفعل وخطر يحاوطها.

وهي كانت تحاول بكل جهدها وطاقتها تّعود الناس وائتلافهم، ورغم خوفها إلا أن وجود ظافر كان يطمئنها، لا تعلم كيف**!** ولكن هذا ما كانت تشعر به.

دخل الأساتذة المشرفون على المسابقة وقاموا بتوضيح السياسات والمخطط و الجدول الذين سيسيرون على نهجه، وأهمية التعاون بين الطلاب لضمان الفوز في المسابقة.

ثم قال أحد الأساتذة:

- سيكون ظافر قائد الفريق بإذن الله

فاستهجن أحدهم:

- ألأنه الأول؟!... ألا يُحق للثاني أن يقود، لابد أن ننتخب والأكثر عدداً هو الذي يقود
- لقد اخترت ظافر لأنه يمتلك صفات القائد، ليس لأنه الأول فقط، ولم اختارك لأنك لا تصلح لذلك الدور يا بني، فأنا الأدرى بالأولى بالقيادة أكثر منك يا فتى... لكن لك ما شئت، سننتخب ولكنك سترى من سيكون الفائز، فالقائد يتبعه القطيع لصفاته التي توحدهم وتعطيهم الطاقة والإنسجام

تعكر وجه سامح بما رد الأستاذ عليه به، فدائماً يرى أن ظافر يقف له كالشوكة في الحلق، وفي الحقيقة هو الشوكة الحقيقية لنفسه، ولم يكن ظافر أو غيره يوماً عقبة لأحد، هو الذي أراد أن ينظر إليه كعقبة، لم يستطع أن ينافس نفسه ليخرج منها الأفضل؛ فوضع الآخرين لنفسه عقبات كأعذار.

فأردف الأستاذ مرة أخرى صوت عال:

- سأكتب اسميّ ظافر وسامح وكل من يريد الترشح للقيادة على اللوح والفائز بعدد أصوات أكثر سيفوز بالقيادة

ثم صمت قليلاً واستطرد بعد لحظات:

- هل يريد أن يترشح آخر منكم؟

فلم يجب أحد دلالة عن الرفض، فرفع يده يكتب اسميّ ظافر وسامح وسأل:

- من يريد ظافر فليرفع يده؟

فرفع أكثر من القاعة أيديهم، ومنهم ريحان التي رفعت بيدها بلا تردد، فظافر تعرفه، ظافر تراه قاسي لكنه شخص جيد وليس مثل ذلك الشخص الذي تشعر من ناحيته بالنفور؛ هكذا قالت لنفسها، ولم يتبقى إلا رفاق سامح وسامح نفسه.

فابتسم الأستاذ وقال:

- إذن أعتقد أن النتيجة محسومة الآن، أنا أسف يا سامح حظاً سعيداً المرة القادمة

ولم يزد هذا في نفس سامح إلا غضباً على أشخاص صمم أنهم ضده، فوجه الأستاذ إليه نظره وقال بلطف أبوي:

- أريدك في مكتبي يا سامح بعد أن ننتهي

ثم نظر إلى ريحان التي كانت تشبه الفتاة الصغيرة التائهة وأردف:

- أظن إنكِ ريحان طالبة كلية الألسن، فأنتِ تبدين جديدة على مرآي

فنظر لها الجميع مرة أخرى يستكشفون من تلك الريحان التي بينهم، وكانت التفاتة ظافر المتلهفة في قلق ناحيتها كفيلة بجعل سامح المتقد شراً ناحيته يلتقط أمر أهمية ريحان عنده، شخصاً ما سيكون نقطة ضعف لظافر، فنظر إلى ريحان وعينيها المتوترة التي تشبه الريحاين وابتسم بخبث ومكر.

***

التقت ريحان بحور في الخارج عندما كانت الأخيرة تنتظرها، فأقبلت عليها بحماس وهلع لتحكي لها عن شعورها وهي وحيدة بالداخل وعن وجود ظافر واطمئنانها به، وعن ما حدث بالداخل من سامح الذي أظهر غيرة شديدة من ظافر، وبعد أن قصت ريحان لها كل شيء، ردت حور:

- يبدو أن هذا السامح شخصًا شريرًا... ولكني فخورة بكِ لأنكِ استطعتِ التماسك والتأقلم

ثم اقتربت منها بطريقة مضحكة وهي تنظر لها بريبة وعلى ثغرها بسمة لعوبة:

- لكن ما لا أفهمه هو اطمئنانك في وجود ظافر... فسري لي ذلك

فتوترت ريحان وتلعثمت وهي تحاول شرح الأمر، إلا أنها شردت قليلاً وقالت وهي تفكر:

- حقاً لا أدري ما الذي جعلني أشعر هكذا!
- مهما كان الأمر، اجعلي دائماً القاعدة أمام عيناكي، احفظي قلبك من أي عبث قد يدمره، اجعليه دائماً مُعمر حتى يأتي ذاك الذي يؤتمن فيدخله، اجعليه بيئة صالحة

لغرس بذور الحب فيه، وكما ذكرتك ذكريني دائماً، فلنكن على العهد حتى نرتاح وتصلح حياتنا، لذا دعينا نغض من أبصارنا بقدر ما نستطيع، وألا نُشغل قلبينا بأحدٍ قد لا يكون يوماً لنا

ابتسمت ريحان وأمسكت بذراع حور تطوقها كطفلة وهي تقول:

- نِعم الصديقة أنتِ يا حور، لا تقلقي عليّ، فأنا أضع دائماً القاعدة نصب عينيّ، كما إنني لا أبحث عن ظافر، هو فقط من يظهر لي ' كفرقع لوز' ، وأعتقد أن الذي جعلني أشعر بالأمان في وجوده أنني أرى فيه شهامة ورجولة رغم قسوته؛ فقد لاحظت من إحتكاكنا إنه لا يطيل النظر إليّ، ولا يمد طرفه ناحيتي إلا بشكل عادي، حتى إنه اليوم بدا وكأنه لا يعرفني
- جيد، كوني حذرة فقط
- حسناً

ثم افترقتا على التقابل مرة أخرى في موعد الغداء ببيت ريحان، في حين توجهت حور إلى التجمع الأول للمتسابقين

في المكتبة الخاصة بالجامعة. دخلت حور وفي قلبها عزيمة وحماس للفوز بشيء تحبه، هكذا حور دائماً؛ شعلة متقدة لا تفتر لأي سبب كان؛ حزن أو تعب، تواجه وتحارب دون أن تهرب، طافت بعينيها على جميع الحاضرين حتى حطت على مكانها المميز لتجد به نفس ذاك الشخص، تفاجأت ولكنها تعدت الأمر وجلست في مكان آخر وتناست هذا الأمر، لكن في المقابل اعتلت ثغره ابتسامة طفيفة صافية وهو يتذكرها، متمنياً في أعماق قلبه أن تكون بخير.

تحلق المتسابقين حول الأساتذة في حلقات ما عدا حسن الذي ظل في مكانه على طاولة صغيرة مستديرة في زاوية من زوايا المكتبة أمام نافذة ينفذ منها ضوء خافت متسرب من بين فروع الأشجار الفارعة خارجها، ومن خلفه الحائط ومن جواره رفوف من الكتب، بدأ أحد الأساتذة الكبار في الحديث قائلاً بعد إلقاء التحية وإبداء التعارف:

- الكاتب الجيد يجب أن يكون قارئاً نهماً بجانب أن يكون موهوباً بالفطرة، والكاتب الموهوب يجب عليه تنمية هذه الهبة وإلا إنها لن تكفي ليصبح كاتباً جيداً، وهذه المبادرة لن تكون تسابقية فقط بل تعليمية أكثر، سنعلمكم

كيف تثقلون مواهبكم وسنترك لكم المجال بعدها للتسابق فيما بينكم واختيار أكثر ثلاثة أعمال متميزة وسنقوم بنشرهم إن شاء الله

تعالت وتيرة الحماس بأصواتهم، ثم قال أحد الأساتذة:

- الآن ليُطلعنا كل أحدٍ منكم على بعض كتاباته وخواطره.

شارك الجميع بعض خواطره وكتاباته حتى جاء دور حور التي أفرغت ما في جعبتها وهي تقول خاطرتها: "ما بين حياتي ومنامي صحراء تتوه فيها آهاتي، وتنازعني فيها آلامي، لا ملجأ من قيظ شمسٍ حتى وإن كان ظل صبارٍ، تصارعني مخاوفي وتوقظني لخوفٍ أكبر؛ خوفٍ يحاوطني كل يوم، في حياتي ومنامي صحراء شاسعة وقيظ شمسٍ ولا ملجأ حتى وإن كان من ظل صبارٍ"

أعجب بكلماتها عدد من الحاضرين وأبدوا هذا الإعجاب، ولكن حسن كان مأثور بتلك الكلمات وكأنها كتبت خصيصاً عنه وله، فاعتدل في مجلسه مهتماً، وساوره شعور برغبة مُلحة في سماع المزيد، وقراءة بعض مما ستكتب.

فور الإنتهاء من المحاضرة الأولى لهم، وحين كانت تهم حور بالمغادرة التقت عينيها بعينيه لثوانٍ معدودة، وثارت بداخلها بعض التساؤلات عنه: "من هو؟، ولماذا لم يشارك معهم؟!، وهل هو مشترك أم لا؟!"، فباغتها خاطر بأنها حقاً لا تعرفه ولا تعلم عنه شيئاً واستغربت ذاك الشعور الذي لازمها بأنها كانت تعرفه!، فآثرت التناسي معروفاً لنفسها.

في لحظة صفاء وراحة تنعم بها حور في بيت ريحان، هبت زعابيب غابرة تعكر عليهم صفو بالهم والمقصودة بها حور، دخل عليهم عم حور ومعه ذاك المسمى "خليل" قريب زوجته وعلى وجوههم إمارات الشر، وقبل أن يرحب بهم السيد عبد الله والد ريحان تعالت أصواتهم بسوء خلق وتربية سيئة، فأوقفهم السيد عبد الله عند حدهم قائلاً:

- احترم نفسك وحاسب لسانك وإلا سيكون هناك تصرف آخر يليق لتلك الهمجية

فنطق الثاني باستخفاف:

- ماذا ستفعل أنت؟.. أظن إنك لا دخل لك بما أتينا له، نحن هنا لنأخذ حور ولتقتطعوا صلتكم بها

نظر السيد عبد الله له ورد بهدوء مباغت:

- ومن أنت لتتحدث هكذا؟!

انعقد ما بين حاجبي عمها قائلاً:

- سيكون زوجها قريباً، لقد خطبها مني، وأنا وافقت

فتكلم السيد عبد الله بلهجة حادة:

- وهل سألتها يا عابد لتقول شيئاً كهذا، أم إنك تقول ما تمليه عليك زوجتك وجشعك

تلعثم عابد وهو يحاول أن يقول شيئاً إلا أن السيد عبد الله أردف مواصلاً:

- لقد بعت ابنة أخيك يا عابد ولكن هي ليست بالضعيفة وأيضاً ليست وحدها، أنا معها ولن أتركها أبداً وما في إمكانك افعله، ولأقولها لك صريحة لن تستطيع فعل شيء، والآن لقد تأخر الوقت ونحن ننام مبكراً

نظرا له الإثنان بغل ثم قال خليل متوعداً:

- سنرى ولكن لا تندم عما سأفعله بعد أن نخرج من هنا

خرجوا من البيت ليجن جنون حور لأنها لم تخرج كما نبهتها السيدة رقية؛ لتصفعهم بنارها وتوقفهم عند حدهم، ولكن السيد عبد الله هدأ من روعها مخففاً:

- لن يستطيعوا فعل شيئًا قانونيًا، لا يستطيعون إجبارك على شيء، لكن كوني حذرة فقط بالخارج، فذاك الخليل همجي وقد يفعل أي شيء خطير
- أنا لا أخاف منهم يا عمي

- أنا أعلم يا حور، ولكن أنتِ لست وحدك أبداً يا ابنتي، ولكن أرجوكِ كوني حذرة

- حسناً يا عمي، سأكون حذرة

ثم نظر إلى ابنته بحنو، مطبطباً على يديها المرتعشة بحب وهو يهدأها هي الأخرى:

- لا تقلقي يا عزيزتي

فنظرت لهم ريحان بوجهها الشاحب وهي تقول برعب جلي:

- هل سيؤذي حور، هل سيختطفها؟

فاقتربت منها أمها وتمسكت حور بها، حتى لا تتملكها حالة فزع، ثم قال والدها مخففاً:

- لا تقلقي يا صغيرتي، لن يحصل ذلك أبداً، فحور واعية وتستطيع التصرف وأنا موجود ولن أتركها أبداً

- أتمنى ألا يحصل مكروه

- إن شاء الله

مر على الفتاتان يومان في البيت دون الخروج منه امتثالاً لرغبة ريحان التي فضلت عدم ذهاب حور إلى الجامعة وحتى هي نفسها خوفاً من أذى أولئك الناس التي تشبه الوحوش وبوجوه البشر.

اقتربت حور من ريحان وهي جالسة تحاول تهدئة نفسها بترجمة أي شيء وقالت تحايلها:

- ريحان لنعد إلى الجامعة يكفي هذان اليومان، ولنعد إلى حياتنا الطبيعية
- دعينا ليومان آخران يا حور
- إلى متى سنظل قول ذلك، طالما الخوف موجود فلا فرار إلا لعيش حياة تعيسة

ظهرت ملامح التردد على وجه ريحان، فزادت حور في طرق الحديد الساخن مردفة:

- ولا تنسين المسابقة، وأنتِ عضو وجوده مهم فيها كباقي الأعضاء، وأنتِ يا ريحان أكثر ما تكرهينه عدم الوفاء بوعد أو سداد دين، أو المشاركة في شيء لن تنهيه إلى آخره

عكصت ريحان ما بين حاجبيها وهي في غاية عدم الرضا عن نفسها وكذلك في قمة حيرتها وقالت:

- لكن أنا خائفة يا حور، لا أريد أن يؤذيكي أحد

ابتسمت لها حور بحب واقتربت منها تحتضنها وهي تقول:

- لن يستطيع أن يؤذيني أحد بإذن الله

في اليوم التالي خرجت كلاً منهما إلى الجامعة ولكن في عقل كلاهما مخاوف وهواجس، فريحان خائفة من تجربة أليمة أخرى، وحور رغم قوتها إلا إنها فتاة مهما بلغت قوتها تخاف وتذعر وتقلق وكل ما تريده هو الأمان. اتفقتا على اللقاء في الكافتريا الخارجية بعد أن تنتهي ريحان من بعض ما وكل لها في المسابقة. دخلت ريحان إلى القاعة الكبيرة التي خصصت لهم للعمل بحرية أكبر وبدأت تنفذ ما يجب عليها إتمامه وفعله بثقة بدأت تنتابها بعد أن خاضت تلك التجربة وحدها، فسُر داخلها بنفسها وفخرت إنها استطاعت أن تنجح في التجاوز وعدم الخوف من معاملة الأغراب، ولكن شعورها بالخوف على حور من أولئك الناس عاد

يساورها مرة أخرى يقطع أي فرصة لها للفخر بنفسها، ثم قاطعها سامح الذي أصبح يتدخل في عملها دون سبب، ويحتك بها منذ دخولها اليوم، ويضايقها ذلك، كما كان يضايق ظافر أكثر منها، كل ما فيه كان ينشد ويتشنج حينما يراه يقترب منها أو ينظر إليها، أصبح أمرها يعنيه أكثر مما كان يعتقد، وانزلق أكثر مما ينبغي. فلتت أعصابه حينما سمع ما كان يقوله لها وعلى وجهه بسمة سمجة يعرف معناها جيداً:

- لقد غبتي عنا ليومين، فهل أستطيع أن أضمك لمجموعة الدردشة خاصتنا

تلعثمت ريحان وهي ترد برسمية، وبقوة تحاول أن تستحضرها أمام شخص يجعلها تشعر بالخوف والنفور:

- ولكنني مشتركة في مجموعة دردشة المسابقة بالفعل

ابتسم بفهاوة وهو يشير بعينيه إلى أصدقائه:

- لا، إنها دردشة مجموعة أصدقائي الخاصة

هنا انفلتت أعصاب ظافر وشعر أنه كالثور الهائج يريد أن يهشم أي شيء خاصة دماغ سامح ولكن ما بيده حيلة؛ لا

يريد أن ينظر لها أحد بشيء من الخبث. ولكن رد ريحان القوي والصلب كان مفاجئاً لهما هما الاثنان عندما قالت بوجه متهكم وبجرأة لم تعتدها أبداً وكأنها تحولت:

- ومن أخبرك إنني سأقبل.. ودعني أوضح لك أمراً آخر عني، أنا أكره التدخل فيما لا يعنيني كما أكره أن يتدخل أحد في شئوني، أكره الإصطياد في الماء العكرة كما أكره أن يشركني أحدٌ فيها، لذا أرجو أن تبتعد عني، وتبعدني عن أي مخطط أو طموح تريده

وتركته خلفها وهو في أسوأ صورة قد يكون عليها، وفي أسعد صورة لظافر قد يكون عليها من تلك الإبتسامة التي اعتلت وجهه وحاول إخفائها، متفاجئاً ومعجبًا بجرأتها وقوتها التي تفجرت فجأة كينابيع حارة. كذلك كانت هي من نفسها، فخرجت من القاعة وعلى وجهها ابتسامة فخر، وفي تلك اللحظة شعرت إنها لن تخاف بعد الآن، وأنها قد تخطت حاجزاً نفسياً كان يؤرقها، فأسرعت إلى حور تخبرها بما جد لها، ووجدتها جالسة فاقتربت منها وهي تقول لها:

- حذري ماذا فعلت اليوم؟

ابتسمت حور على إثر ابتسامة ريحان الواسعة، وتغير حالتها القلقة وسئلتها بفضول:

- ماذا؟!

قصت لها ريحان ما حدث من سامح وبما ردت عليه به، ففغرت حور فاهها وهي تسألها:

- كيف جاءتك تلك القوة؟
- حقاً لا أعلم يا حور، ولكنني شعرت بها بداخلي ووحدي من كنت أخفيها، لكن إن كان حدث هذا الموقف من قبل لكنت بكيت

ضحكت حور ثم أردفت:

- هيا بنا نكمل حديثنا ونحن نشتري شيئاً من المتجر الذي على أول هذا الشارع

تمسكتا بيد بعضهما البعض وتمشيا وهما تتضاحكان حتى وقفت أمامهما فجأة سيارة سوداء تمتد منها أيادي حاولت جذب حور بقوة إلى داخل السيارة، التي دافعت عن نفسها بقوة، وريحان كذلك كانت تجذب حور بكل قوتها ناحيتها

بهستيرية، وهي تلقي بعينيها في كل مكان لتجد أحد ينقذهم حتى وجدت طيف نجدتها فصرخت بكل قوتها باسمه:

- ظــــاااافر

اتسعت عيني ظافر وهو يلتفت إلى مصدر صوتها، وعندما رآها في هذا الموقف هي وصديقتها ركض بكل قوته ومن خلفه حسن الذي تعرف على حور على الفور، ركض الاثنان وأمسكا بذاك الشخصان اللذان كانا على وشك وضع حور بالسيارة وانهالا عليهما بالضرب المبرح، واجتمع الناس من كل مكان يمسكون بذاك المجرمان حتى أتت الشرطة وألقت القبض عليهما. وقفت حور تسند ريحان وليس العكس، كانتا مرهقتان، أما ظافر وحسن فكانا متآهبان كجنودٍ في حرب بجوارهما، اقترب منهم ضابط للاستفسار عن ما حدث وقصوا له كل شيء، ثم طلب منهم الضابط الحضور إلى قسم الشرطة هذا اليوم لاتخاذ كافة الإجراءات اللازمة.

اتصلت ريحان بوالدها ليأتي إليهما بعدها بأقصى سرعة، أخذ الفتاتان وكلا من ظافر وحسن وذهب إلى قسم الشرطة، وتم اتخاذ كافة الإجراءات القانونية بعد أخذ أقوال شاهد

العيان بحبس المدعي خليل لإرتكابه جريمة جنائية بالسجن المؤبد والآخر بالسجن لعشر سنوات في المساعدة على ارتكاب جريمة جنائية. كما تم عمل محضر لعم حور بعدم التعرض وسحب الوصاية من يديه.

خرجت كلا من حور وريحان وعلى وجههما بسمة ارتياح بالرغم من اليوم الشاق والمُتعب، فقد تحررتمن عبء خطر المسمى خليل وعابد.

وقف السيد عبد الله أمام ظافر وحسن وعلى وجهه ابتسامة ممتنة ودودة:

- أشكركما على إنقاذكما للفتاتين ووقوفكما بجانبهما، ممتن جداً يا ولديّ، ولا أعرف كيف أرد لكما جميل صنيعكما هذا

توتر ظافر بشدة وهو يرد بلهفة:

- الشكر لله يا عمي، لا تقل هذا أرجوك، هذا واجبنا وواجب على أي رجل

كذلك حسن الذي قال:

- الحمد لله على سلامة الآنستان
- الحمد لله يا بني الحمد لله، والآن استئذنكما للذهاب ولكنني أتمنى أن أقابلكما في يوم آخر على الغداء في منزلنا

فظهرت علامات السرور على وجه الشابين ووافقا على الفور بامتنان وقلبهما ممتلىء بأماني وآمالٍ كبيرة حالمة. كما ظهرت بوادر الخجل على قلب ريحان قبل وجهها فأخذ ينبض كالمجنون، فشعرت بأن الكل يسمعه فتوترت وارتجفت، حتى أمسكت بيدها ريحان فهدأت قليلاً.

***

دخل كلاً من حسن وظافر على السيد حسان وهو في حالة تأهب غريبة، وقلق شديد، فأسرع إليهما يقول:

- ماذا حل بكما؟، لقد تأخرتما كثيراً! وأيضاً لا تجيبان على هاتفكما الخلويان

استغربا لقلقه هذا، فنظر إليه ظافر بتمعن وهو يسأله:

- ما الأمر يا جدي؟!، لماذا أنت قلق هكذا؟، هل حدث شيء؟

اخفض السيد حسان عينيه بألم وهو لا يدري كيف يخبره بما حدث بأقل الطرق إيلاماً حتى قال متأسفاً:

- لقد زج بك في معمعة دون علمك.. لقد اتهمك أبوك أمام شركاؤه بأنك من قمت بالتلاعب بالصفقة التي بينهم وسرقة الأموال.. وشركاؤه أناس فاسدين ولا يعرفون الرحمة؛ فخفت إنه قد أصابك مكروه خلال ذلك الوقت الذي تأخرت فيه

تسمر حسن من الصدمة وعلامات الدهشة تغزو وجهه، وانهدم داخله شيء فشعر إنه رخو حد المياعة، لا يوجد ظهر

داعم ولا سند يستند به داخله، ثم ابتسم ابتسامة جانبية غريبة وهو يقول بمرارة:

- إنه عاصم الدهبي وليس والدي

فوضع السيد حسان كفه على كتفه يدعمه ويشد أزره وكذلك حسن، فنظر إليهما بقوة وقال:

- ليست المرة الأولى التي أراه فيها على حقيقته لذا لا تخافوا عليّ، ولكنني سأجعلها المرة الأخيرة للاحتكاك بي
- تصرف بحكمة فهولاء الناس الذي تعامل معهم والدك فاسدين مثله تماماً، وللأسف لم يصل تفكيري إنه قد يكون بتلك الخساسة ليزج بابنه الوحيد وبأمانه في تلك المعمعة

فخرج حسن عن صمته سائلاً السيد حسان:

- إلى أي مدى قد يكونوا خطريين يا جدي
- إلى أقصى حد، أنهم أناس مجرمون وقتله، تجارتهم مبنية على الرشاوي والمصالح الفاسدة غير تجارتهم الغير مشروعة، لذا قلقت عليكما عندما تأخرتما، لكن لا

تقلق يا ظافر سأقوم بكل ما في وسعي لأحميك وافض هذا الإشكال

- أرجوك يا جدي لا تقحم نفسك بين هؤلاء الناس، لا أريد أن يتعرض لك أحد بسوء، ولا أريد أن يدخل اسم حسان العلايلي في تلك المواضيع

ضيق السيد حسان عينيه في تحدي مردفاً:

- يبدو إنك لا تعرف حسان العيلايلي يا فتى، لقد مر عليّ من هذه الأشكال الكثير وأستطيع الصد لهم بإذن الله، أما عن اسمي وسمعتي؛ فالجميع يعرف من أنا، وسترى ماذا سأفعل

فقال حسن:

- دع جدي يتصرف يا ظافر ونحن من وراءه فأنا لن أأمن تهورك

فاقترب من أقرب مقعد وجلس عليه وهو يفرك وجهه بعصبية، ثم طأطأ برأسه موافقاً، فاستطرد حسن:

- الحمد لله

ثم سألهم السيد حسان مرة أخرى:

- صحيح،! أين كنتم كل تلك المدة؟

فرد ظافر قائلاً:

- كنا ننقذ فتاة من الاختطاف، واضطررنا للذهاب إلى قسم الشرطة للإدلاء بشهادتنا.

- يا إلهي، وماذا حل بالفتاة؟

رد حسن:

- إنها بأمان الآن، فتلك الفتاة قوية وأعتقد إنها ستتغلب على موقف اليوم، أما صديقتها فلقد كانت المسكينة هي المذعورة، وأعتقد أن ظافر يعرفها كما هي تعرفه

فتفاجأ السيد حسان قائلاً:

- ظافر لا يعرف إلا ريحان!

فابتسم حسن بخبث مقترباً بفضول القطط:

- هل هناك شيئاً لا أعرفه؟

فابتسم السيد حسان، واعتدل ظافر أمام حسن وهو يقول:

- هناك أمراً لا نعرفه عنه أيضاً يا جدي!، فمن الواضح إنه يعرف حور صديقة ريحان أيضاً

فجلس السيد حسان بينهم وهو يقول:

- أظن إننا لن ننام اليوم، سنتحدث كثيراً

***

دخلت كلا من حور وريحان غرفتهما بعد أن ارتاحت السيدة رقية رؤيتهما أمام عينيها، وظلت طوال الليل تحتضنهما وتبكي لما حدث لهما اليوم، ذلك ذكرها بما حدث لريحان قبلاً وهي طفلة فلم تتحمل أن يحدث هذا مرة أخرى وتتعرض له فتاة أخرى خاصة حور صديقة ابنتها وحبيبتها، بل وابنتها الثانية.

وقفت ريحان أمام حور تنظر إليها وتبادلها الأخرى نفس النظرات حتى دمعت عيناهما واحتضنا بعضهما البعض بلهفة وكل منهما تطبطب على ظهر الأخرى مع شعور متبادل بالمواساة، ظلا على حالهما لدقائق معدودة تبث كل منهما الأمان والاهتمام للأخرى حتى اطمئنتا وتلاشى خوفهما، فنظرتا إلى بعضهما مرة أخرى ولكن هذه المرة ببسمة خفيفة مشرقة، ثم قالت ريحان:

- الحمد لله تخلصنا من خليل وعابد

تنهدت حور في راحة:

- الحمد لله، كنت أشعر بالاختناق بسببهما، ولكن مازلت أشعر ببعض الخوف، أخشى أن ينتقم عابد هو والأفعى زوجته

جعدت ريحان ما بين عينيها في قلق، فأردفت حور تطمئنها:

- ولكني أعتقد أنهما سيخافان؛ فهما أجبن من ذلك بكثير، لا تقلقي
- آمل ذلك!
- لكنني ممتنة على ما فعله ظافر وذاك الشخص، أعتقد أنهما صديقان

ابتسمت ريحان على ذكر ظافر وعلى موقفه معهما ووقوفه بجانبهما، خاصة شعورها بوقوفه بجانبها والقلق عليها عندما لبى نداءها في غمضة عين، ثم تذكرت صديقه وقالت:

- هل تعرفينه؟، لقد بدا وكأنه يعرفك وكذلك أنتِ!
- هل تتذكرى ذاك الشاب الذي أخبرتك عنه عندما كنت في المكتبة وحدي أبكي؟
- نعم!
- لقد كان هو

- يا لها من مصادفة عجيبة!!

- أنا أرى ذلك أيضاً، خاصةً عندما وجدته في نفس المسابقة التي أنا فيها

أمالت ريحان برأسها بتعجب مستطردة:

- ربما ليست مصادفة عادية يا حور، أي مصادفة على الإطلاق حتى وإن كانت صغيرة أشعر بأنها تدبير لحكمة أو غرض، لا شيء يأتي بالصدفة أو يذهب بالصدفة، كل شيء مقدر حتى وإن كانت بحجم حبة الخردل، فكله في نسيج متكامل بلا فوضى، ربما لا نراه لأنه من المستحيل أن نعي أشياء أكبر من وجودنا نحن كبشر، وحتى إن أدركنا فلن يكون كل شيء سهل إدراكه..وأنا أشعر أن تلك المصادفة لن تكون بحجم حبة خردل

تنهدت بتفكير وقالت:

- كلماتك جيدة ومبعثة للتفكير

ثم شردت قليلاً، لتستأنف قائلة:

- ولكن في رأيك يا ريحان ما الذي قد يحدث

- لا أعلم ولا أستطيع أن أخمن، ولكن ربما كان الغرض إنقاذك اليوم مع ظافر

- ربما!.. وأظن أن ظافر هو الآخر لن يكون صدفة عادية بالنسبة لكِ يا ريحان

شردت ريحان بخجل؛ فاستأنفت حور قائلة:

- ولكن دعينا نحذر، لا أريد أن نفكر كثيراً في أمور قد تأخذنا إلى طرق وهمية

نظرت لها ريحان بتعمق، فأردفت حور مرة أخرى:

- لأكن صريحة أمامك وأمام نفسي، لقد شعرت بشعور غريب عندما رأيت حسن مرة أخرى وأدركت إنني لم أعرفه وكنت طوال تلك المدة التي لم أره فيها موهومة بمعرفته، وسئلت نفسي "ما السبب!" ولم أجد إجابة إلا أن سبب كل ذلك كان الموقف الذي مررت به معه، فقد كان موقفًا حساساً وخاص بي ووحده الذي شاركني إياه بالصدفة، ثم شعرت بشعور آخر عندما أنقذني اليوم، وربما يأخذني هذا الشعور أيضاً في طريق يؤدي إلى

عالم أعيش فيه وحدي، لذا عليّ الحذر وكذلك أنتِ، أليس كذلك!

- أظنك على حق يا حور، فأنا أيضاً امتلكني شعور غريب عند رؤية ظافر هذا اليوم وليس كأنه شخص عادي استنجد به

ارتمى ظافر على سرير غرفته في بيت السيد حسان بعد أن أصر على البيات معه، وبعد ليلة طويلة من المواساة الغير مباشرة من الشخصين الوحيدين اللذان يهتمان لأمره، وما لبث سريعاً حتى غفا وذهب إلى عالم آخر في صحراء شاسعة يمشي فيها وحيداً ويده على صدره تكتم تدفق الدماء منه حتى بلغ جهده منتهاه فسقط صريعاً للتعب، ثم أظلمت عيناه تدريجياً حتى أغشيّ عليه، وبعد مرور بعض من الوقت ولا يعلم كم؛ فتح عينيه ولكن هذه المرة على صوت حسن وهو يناديه، وشجرة ريحان يستظل تحت أوراقها، فأراد أن يعتدل في جلسته ليجد من يمد له يده ليشده ويسقيه ماء، فإذا هو بالسيد حسان، ثم يتفاجىء ظافر بعدها بتلاشي الصحراء إلى أن أصبحت غرفته. نظر له السيد حسان بقلق وهو يقول:

- لقد قلقنا عليك، لقد كنت تئن وتمسك بصدرك..هل أنت بخير؟

أومأ برأسه وهو يتمتم:

- لقد كان كابوساً

ثم انفرجت ملامحه وهو يستنشق رائحة الريحان بغرفته، ونام مرة أخرى.

خرج السيد حسان لحسن القابع خلف الباب، فقال له الأخير:

- ماذا ستفعل يا جدي؟
- لا تقلق يا حسن لقد اتصلت ببعض المعارف وسيستطيعون التواصل معهم وحل الخلاف الناشب دون أي خسارة بإذن الله
- هل أنت متأكد يا جدي من استطاعتهم ذلك!
- بالطبع يا بني!، لا تقلق أبداً
- وماذا سنفعل مع قلب ظافر المجروح يا جدي؟
- سنداويه يا عزيزي، وسيعوضه الله بكل جميل إن شاء الله
- إن شاء الله

وقفت ريحان تتابع شرود ظافر واختفاء نشاطه المعتاد، وتسائلت ما الذي يجعله بهذا الحزن الذي ينضح من وجهه، ثم دعت له من كل قلبها بأن يفك الله كربه. وتوالت الأيام وانكشف فيها من الغم ما انكشف، وجاء اليوم الذي ستظهر به نتيجة كلتا المسابقتين، وقف الجميع خلف ريحان الجالسة أمام اللاب توب تنظر إلى الحكام والمتسابقين الآخرين في غرفة المحادثة الخاصة بالمسابقة، وبعد الكثير من الشروحات والتفاسير كان وقت إعلان البلد الفائزة قد آن، فاجتمعوا جميعاً على أمل بالفوز والنجاح وأن يعلو اسم بلدهم في سماء الرفعة والعلم، حتى جاءت اللحظة التي علا فيها اسم "مصر" بالمركز الأول لتعلو صرخاتهم الفَرِحة بالتهليل والتكبير وباسم البلد الحبيبة، كان صعب التصديق ولكن كل الجد والاجتهاد الذى قاموا به جعلهم في أكثر المواقف شرفاً ورفعة.

وفي مكتبة الجامعة الكبيرة، وقفت حور تدعو الله في سرها بالنجاح الذي تتمناه، أن تكون قد برعت في تقديم أفضل ما عندها وإنها تستحق ذلك النجاح، حتى ظفر قلبها بالفرحة

التي تريد فور أن نطق باسمها أحد الأساتذة. فكان يوماً حافلاً للفائزين خاصةً ريحان وحور فكلتاهما ناجحتان وفخورتان.

وبمناسبة هذه المناسبة السعيدة، قام السيد عبد الله والد ريحان بعزيمة حسن وظافر ليلة الفوز بعد أن تأجلت حتى تأتي تلك الليلة. وافق الشابان رغم حرجهما، واستضافهما السيد عبد الله في بيته بكل ترحيب وحبور، وكذلك السيدة رقية التي خرجت ورحبت بهما لتتعرف على الشابان اللذان انقذا حور وريحان وتشكرهما على جميل صنيعهما، كما أعدت لهما أحلى وأشهى الأطباق تعبيراً عن مدى امتنانها لهما. جلس الثلاثة في غرفة الضيوف يتناقشون في أمور عدة حتى يأتي وقت تقديم الطعام، فقال السيد عبد الله مباركًا:

- مبارك عليك النجاح يا ظافر
- شكراً لك يا عمي

ثم نظر لحسن متسائلاً:

- أعرف إنك كنت في مسابقة حور ولكن لم تكن تشارك!، هكذا قالت لي حور، وسامحني يا بني هذا الأمر أثار فضولي

ابتسم حسن بحرج وفي نفس الوقت رفرف قلبه بشعور عذب لأنها كانت تذكره، ولأنه يشعر به لأول مرة فكان له تأثيراً قوياً، ثم رد يوضح:

- لقد كنت في لجنة التحكيم، ولكني كنت الحكم الخفي

اندهش السيد عبد الله وهو يقول:

- ستتفاجىء حور بتلك المعلومة!
- لا يا عمي، أرجوك لا تخبرها الآن
- حسناً، لك ما تريد يا بني.. إذن أأنت تملك أعمالاً أدبية، أم إنك ناقد
- الحمد لله الأمران

ابتسم السيد عبد الله بفخر قائلاً:

- أنتما مثال رائع يحتذى به للأجيال القادمة.. كما أيضاً يفرحني أن أرى شباب من هذا الجيل ينجح رغم الصعاب والتحديات التي وضعت له

ابتسم ظافر قائلاً:

- يندر وجود مثل حضرتك يا عمي، فالجميع يرى إننا جيل فاشل أو ليس بكفء

رد السيد عبد الله بابتسامة لطيفة:

- وقد كنا من قبلكم جيل فاشل غير كفء أمام الذين سبقونا، الجميع يقارن دون أن ينتبه أن الزمن يتغير من جيل إلى آخر، والحل أن نكون مرنين لا أكثر، ولكن من المضحك أن الأجيال السابقة هي التي جعلت أو مهدت للأجيال الحالية ما هم فيه، سواء كان فشل أو نجاح أو حتى صعوبات، ولكنكم أكثر الأجيال التي أشفق عليها، رغم أن هناك أجيال عاصرت حروب طوال حياتها وأمراض وانتكاسات، ولكنكم الجيل الذي فقد الوقت والصحة النفسية والبدنية رغم كل هذه التكنولوجيا التي تسهل الحياة إلا إن حياتكم الإنجاز بها صعب والغريبة أن الأجيال السابقة هي التي تتحكم بكم وبعالمكم لا أنتم

انبهر الشابان به، وبخفوت أردف ظافر:

- يا ليت كان لي أب مثلك

تجمع الثلاثة على مائدة الطعام التي اعتلاها كل ما لذ و طاب، وأشهى الأعين والأنوف، فابتسما الشابان يشكران السيدة رقية التي كانت تضع آخر طبق على المائدة:

- شكرًا لكِ يا خالة على كل هذا الطعام، ربما لم يكن عليكِ إرهاق نفسك لأجلنا
- هذا لا شيء يا بني ليكافىء ما فعلتماه لأجل حور وريحان، خاصةً ريحان فمازالت تعاني من حادثتها القديمة.. كما أن الفتاتان ساعدتاني

انعقد ما بين حاجبي ظافر في وجل سائلاً:

- ما الذي أصابها؟!

فأجاب السيد عبد الله هذه المرة:

- لقد تعرضت للخطف من قبل وهي صغيرة، اختطفتها عصابة كانت تريد من والدي الرضوخ في المحكمة والحكم لصالحهم، فكان خطف ريحان الوسيلة للضغط عليه خصوصًا أنه كان متعلق بريحان جدًا

وأعقبت السيدة رقية:

- وهذا الأمر جعل من ريحان فتاة انطوائية، وطوال الوقت خائفة، ولولا وجود حور بجانبها لكانت حياتها توقفت.. ولكن منذ فترة تغيرت ريحان وأصبحت ذي قوة، وخِفت كثيراً أن تعود لما كانت عليه؛ خائفة طوال الوقت

تذكر ظافر حينها فزعها وهلعها وهي تمشي بين الناس، عرف لماذا يختفي صوتها وتظهر دماعتها في محاجرها كلما نظر إليها أحد بقوة، وقال:

- لقد فهمت!

انتهت الليلة بحب كما بدأت بحب، ولكنها انتهت أيضاً بقرار من ظافر بألا يعرضها لخطر مثل هذا الذي مرت به سابقاً، سيجعلها تعيش حياتها بطبيعية بعيداً عن معمة حياته وضوضائها المليئة بالمرارة والأسى والأذى. تمشى الشابان في تئودة بعد تناول كل هذا العشاء الدسم، لكن ربما السبب هو التمتع بتخمة الحب والحديث الطيب، فبدأ حسن قائلاً:

- رجلٌ طيب السيد عبد الله.. سيسعد من سيناسبه

- إنه رجل طيب بالفعل، إذاً ستسعد؛ فحور تعتبر ابنته الثانية

فابتسم حسن بأسى وهو يقول:

- ربما لن أنال الفرصة!

ثم عقد حاجبيه متسائلاً بعد تفكير:

- وماذا عنك؟!
- لقد سمعتهما يا حسن، لقد عانت ولن أجعلها تعاني مرة أخرى

هم أن يخبره حسن شيئاً إلا أن ظافر قاطعه مردفاً مرة أخرى:

- أنت تعلم كيف هي حياتي! ومدى التخبط الذى أعيشه بسبب والدي، ولا أريد أن يمس ريحان أي أذى كان، يحق لها حياة هادئة سعيدة ولن تحظى بها إلا بالابتعاد عنها رغم إنها حلم جميل أود تحقيقه... ولكن ماذا عنك أنت؟، ما الذي يمنعك؟!
- نفسي!، إن كنت تخاف من هوجاء حياتك الغير مستقرة؛ فأنا أخاف على حور من عدم استقرار نفسي وحمقها

أحاط ظافر كتف صديقه بيده متنهداً، فأحاطه الآخر كذلك واخترقا الطريق بصمت. ثم افترقا ليتجهز كلاً منهما للقاء في الغد أمام محطة القطار للسفر إلى الفيوم واحة الجمال وصحراء الذهب، وسماءها الموطن الأصلي لأجمل النجوم، مع باقي فريق المسابقتان.

اتجه ظافر إلى بيت السيد حسان بعد أن انتهى من حزم أمتعته، ليجد صوت والده يرتفع من داخل البيت، فألقى ظافر بحقيبته أرضاً ودخل وهو يشعر أن براكين تهتاج وتثور بداخله، وجد والده يقترب من السيد حسان بشر وهو يرفع صوته عليه:

- لقد ضررت بي يا حســـــان، كنت على وشك الفوز، إلا إنك أفسدت عليّ خطتي
- لقد كنت أنقذ ابنك الذي ضحيت به لأجل فساد طموحك، أيها الحقير!

اقترب منه أكثره وعلى وجه علامات الغل والشر، فصاح ظافر قائلاً:

- كيف تتحدث معه بهذا الشكل؟!!، وما الذي أتى بك إلى هنا؟!

فالتفتا إليه، نظر له السيد حسان بألم وشفقة خوفاً على مشاعره، أما والده نظر له في البداية ببلاهة ثم تغيرت نظرته إلى خبث واستفزاز وهو يقول:

- ومن سيمنعني؟

نظر له ظافر بصرامة وصاح بتحدي:

- أنا يا عاصم الدهبي، ليس لأنني أكرهك فقط، بل لانني في موقف يجعلني أقوى منك

ابتسم باستهزاء قائلاً:

- كيف؟

- لقد استطعت الوصول إلى عدة أوراق، منها التي ستجعل العصابة إياها تغتالك وتقتص منك لغدرك بهم، وسأفعل ما لم يفعله جدي حسان معك، سأسلمك لهم كما فعلت معي دون أن يكون لي دخل بكم، وأوراق أخرى ستجعل الشرطة تلقي القبض عليك والتحقيق معك في أمر أموالك كلها وأموال العائلة، وسأخبر الجميع بما

فعلته بالفتيات التي احتلت عليهن وسرقت منهن شرفهن حتى لو لم أستطع إثبات ذلك إلا إنني سأجعل منك نكرة أمام كل العالم، وسأنتقم لوالدتي.. لذا ابتعد عن كل شخص أحبه عزيز عليّ، واتركني وشأني ولا تتدخل بأموري وحياتي وإلا.. أنت تعلم!

نظر له عاصم بغل وكأنه ليس والده، فابتسم ظافر بظفر مستطرداً:

- واعلم إنني أتبرأ منك ومن عائلة الدهبي، لا ترني وجهك بعد الآن

اقترب منه عاصم ونظر له بصرامة وقلق:

- هل تهددني!!
- نعم، فأنا لم أعد أملك الطاقة التي ستجعلني أتحملك بعد الآن

تصبب عاصم عرقاً، وشعر أن الذي أمامه قد تغير، ولم يعد يمتلك ناحيته أي ذرة رأفة أو حنين، لقد انتهى كل شيء، فأومأ برأسه رافعاً حاجبه بكِبر ورحل بصمت

نظر له السيد حسان يسأله:

- كيف حالك الآن؟
- لقد أصبحت بخير أخيراً
- كنت لا أريد أن تنتهي علاقتك بوالدك بهذا الشكل!
- لا ترتجي منه معروفاً يا جدي، عاصم الدهبي لن يتغير، وسيظل أب عاق لي، ووحش من وحوش البشر لا يرحم

***

سار حسن طريقه شارداً بأشياء كثيرة تشغل عقله، منها تلك المشاعر الجديدة التي تزوره لأول مرة بسبب حور وعدم شعوره بالراحة في نفس الوقت، اختناقه وهروبه، وإلى متى سيستمر بالهرب، وإلى متى ستؤرقه الكوابيس، متى سيرتاح، وعلى سيرة الراحة شعر بأن قلبه يؤلمه، شعر بغصة وتزايد في رجيف قلبه، ثم قرر النظر في تاريخ اليوم بعد أن نسي أن يحصى أيامه ويلقي للتواريخ بالاً. أخرج هاتفه لينظر فيه ورجفات قلبه تتزايد، حتى وقع بصره على تاريخ اليوم لتمتد يدٍ خفية لقلبه توقفه عنوة وتُحيل لونه للون الأصفر، إنه اليوم الذي بدأت فيه عذاباته.

ربما قد لا يلقى الإنسان بالاً لأشياء بعين ذاتها هرباً من الذكرى، ولكن ماذا سيفعل إن كانت الذكريات محفورة وموشومة بالداخل فتهيئها لنا ساعتنا البوليجية متى شاءت.

سار وكأنه ميت تباطأت حركته وثقلت أرجله، حتى وجد نفسه أمام بيته، ووجد أمامه سيارة أحمد المنزلاوي ابن صديق والده وخطيب توأمته؛ حلمه الذي سلبه إياه على غفلة، دخل عليهم وقدميه تأخذ خطوة للأمام وخطوتين للوراء، وجد الثلاثة جالسون والسكون يحاوطهم وكأنهم

تماثيل تمثل الحزن والموت، وقف قبالة ثلاثتهم وشيء بداخله يرتجف برهبة، وكم تمنى أن يكون خفياً أو ميتاً حتى لا ينظر في أعينهم التي تتهمه في كل مرة يرونه فيها، والده الذي يرتكز على عكازه بجبهته، وأحمد الذى أحنى جزءه العلوي على قدميه مرتكزاً بيديه، ووالدته التي عقدت كفيها كعقدة ناظرة إلى الأرض بحزن، شعر به الثلاثة، فوقف أحمد يمد يده بالسلام:

- كيف حالك يا حسن؟

مد حسن يده يصافحه وهو يتمنى ألا ينظر لعينيه، يتمنى أن يختفي ويتبخر، ولكن لا مفر، نظر إليه ورأى كيف تبدل حاله ولم يعد أحمد الذي يعرفه، شحب وجهه وهزل جسده، وعينيه تحمل أسى ولوم وعتاب، فارتعشت يداه وازدرد ريقه بصعوبة وشعر أن ناراً تشتعل بكامل جسده، ثم نظر إلى والديه ليرى ما رآه في عيني أحمد، فجف حلقه واشتعلت النار إلى رأسه فاستئذن هارباً وهو يترنح أمامهم إلى غرفته، التي بدت وقتها كسجن من جحيم، فهرب مجدداً إلى أكثر مكان يريحه؛ بيت جده حسان، فأخذ ما يريده وفر دون أن يعلم أحد.

دخل البيت ليجد ظافر والسيد حسان جالسان وعلى وجهيهما انكفهار؛ فجلس بجانبهما وعلى وجهه نفس العلامات، وهو يسألهم:

- ماذا هناك؟

نظر إليه السيد حسان يرد:

- يبدو أن هناك أمراً حدث لك أنت الآخر!

- نعم

ثم أعطى هاتفه إلى السيد حسان وهو يشير إلى تاريخ اليوم، فتنهد السيد حسان بأسى، ثم أردف حسن مرة أخرى:

- ما الذي حدث لكما؟

فقص عليه ظافر كل ما حدث منذ ثلاث ساعات، فعقد الثلاثة أيديهم ناظرين إلى الفراغ بكل بؤس حتى تنتهى تلك الليلة التي جمعت أوقات طيبة وأوقات عصيبة.

في الصباح الباكر وقف كل من ظافر وحسن والسيد حسان أمام البيت ينتظرون سيارة الأجرة التي ستقلهما إلى محطة

القطار، كان التعب يملئ وجوههم والصمت يكتنف سكانتهم وحركاتهم حتى قطعه السيد حسان منهياً للحوارات التي بدأت البارحة بين ثلاثتهم:

- حسن، يجب أن تتحرر من حزنك الدفين، ولا تحمّل نفسك نتيجة الأقدار المحتومة..

نظر حسن تحت قدميه بألم، ثم استطرد السيد حسان مستكملاً حديثه:

- وأنت يا ظافر لا تسجن نفسك لأمر تستطيع أن تتحداه.. فكن كما عاهدتك دائماً "محارب"

فتنهد ظافر بكآبة، ثم أكمل مرة أخرى بعد أن ظهرت سيارة الأجرة على بداية الطريق:

- أرجو أن تكون هذه الرحلة سبباً في تغييركما

فنظرا إليه، واحتضناه، ثم قال ظافر:

- لا تقلق بشأننا يا جدي، سيحلها الله

ثم قال حسن:

- ونعدك إننا سنحاول بكل قوتنا تغيير أفكارنا، ونستقر

- إذاً وعد

ابتسم ظافر، ثم قال باهتمام:

- لا تنسى الدواء كعادتك يا جدي

تذمر السيد حسان بصرامة:

- ومن أخبرك إنني مريض!، صحتي أفضل من صحة شباب جيلكم كله

ضحك كلاً منهما لأول مرة منذ ليلة البارحة ضحكة حقيقية، ثم قال حسن:

- نعلم يا جدي جيدًا، لكن لنكن حريصون فقط..

نظر لهما بعدم جدية قائلاً:

- حسناً، لا تقلقا!

رفع ظافر حاجبيه وقال:

- سنتصل بك كل يوم هاتفياً عن طريق الكاميرا، لذا اعلم جيداً إننا سنراقبك ولن نتركك وشأنك.. كما إننا وصينا فتحي البستني بالإعتناء بأمر دوائك

زفر السيد حسان بملل موافقاً:

- حسناً حسناً!، هيا اركبا لقد أخرتما صاحب سيارة الأجرة

وصل الشابان أمام محطة القطار واستقبلهما أساتذتهما ومن حضر من الزملاء، وقفا قليلاً إلى أن لاحظ ظافر وجود نرجس وخيالها الجديد "أسامة"، فعقد ظافر ما بين حاجبيه وهو يتمتم:

- ما الذي أتى بهما إلى هنا؟!

فمال عليه حسن وهو ينظر إلى مكان ما تنظر عينيه وهو يقول له:

- ما الأمر؟.. هل هناك خطبٍ ما؟

- انتظر قليلاً..

اتجه ظافر إلى أحد الأساتذة وهو يسأله:

- أليست تلك الرحلة للمتسابقين فقط يا أستاذي؟!

- من المفترض هذا، ولكن بعض الطلاب أرادوا السفر إلى الفيوم أيضاً وتكون الرحلة على نفقتهم، والغريب أن الموضوع وصل إلى تدخل بعض الأباء

رفع ظافر حاجبيه في استغراب وهو يقول:

- هل تدخل والد طالب يسمى أسامة؟
- أعتقد إنني سمعت هذا الاسم خلال اليومين السابقين

فنظر ظافر إلى أسامة وأشار عليه وهو يسأل الأستاذ:

- أسامة هذا؟
- نعم هو يا بني..

عكص ظافر ما بين حاجبيه في قلق وهو مثبت نظره عليه وعلى نرجس، فسأله الدكتور:

- هل هناك مشكلة؟!
- لا أبداً يا دكتور، ليس هناك شيء

اتخذ ظافر مكانه مرة أخرى بجوار حسن، ليقول له الأخير:

- ما الأمر؟!
- أترى ذاك الشاب وتلك الفتاة هناك؟

- نعم، ما بهم؟!

قص له ما حدث من نرجس وعن تهديداتها، وشكوكه ومخاوفه التي تثاوره من ناحيتهما، ثبت حسن نظره عليهما وهو يقول:

- ربما علينا مراقبتهما طوال الوقت

- أنا أعتقد ذلك أيضاً

ظلا على حالهما حتى ظهر لهما طيفا ريحان وحور تترجلان من سيارة السيد عبد الله الذي أشار لهما مبتسماً حين وقعت عيناه عليهما، فابتسما له بدورهما بترحاب متجهين إليه بكل ود، فرحب بهما وهو يحيهما السلام، ثم قال موصيًا:

- أوصيكما بالفتاتان، فأنا أرى فيكما أهلاً للشهامة والنخوة

رد ظافر مسرعًا:

- دون أن توصي يا عمي، إن كنت ترى فينا هذه الخصال فاعلم إننا لا نحتاج لمثل هذه الوصية أبدًا

وعاجل حسن هو الآخر مؤكدًا:

- كما قال ظافر يا عمي، لا تقلق أبدًا

ابتسم السيد عبد الله مربتاً على كتفيهما بمحبة، ثم ودعهما وأودعهم جميعًا في حفظ الله. في حين أن عينيّ نرجس كانت تتابعهم بغل وشر، وتتابع وقوف ظافر الذي رفضها وأهانها أمام الملأ مشمتاً فيها كل فتاة تغار منها أو أقل منها كما هي ترى؛ خاصةً ريحان، ولكن ظافر لاحظها ولاحظ تلك النظرات المشتعلة، فتأكد مقسماً أن تلك الفتاة ومن معها تنتوي شراً، ثم التفت لهما عندما قالت حور بجدية:

- لا تقلقا بشأننا، فلا تزعجا نفسكما بنا كما قال عمي عبد الله، نحن بين الأساتذة والطلاب وليس هناك خطر، كما إننا نستطيع الإعتماد على أنفسنا

عكص حسن ما بين حاجبيه قائلاً بصرامة:

- ليس هناك مانع عندنا يا آنسة، وهذه وصية عمي عبد الله وأنا وظافر نحترم وعودنا، فلا تزعجي نفسك أنت بنا

هبت تقول شيء، إلا أن ظافر قاطعها وهو ينظر ناحية نرجس والآخر الذي معها:

- هناك خطر بالفعل!

فنظرت كلتا الفتاتين اتجاه مرمى بصره، لتشهق ريحان قائلة:

- نرجس هنا!، منذ الصباح وأنا أشعر أن هناك شيئاً سيئاً سيحدث

فنظر لها ظافر قائلاً بحزم:

- لا تخافي

تغاضت ريحان عن النظر إليه وهي تجيب بوجه مضجر بالدماء:

- حسنًا
- الآن، أريدكما أن تكونا حذرتين، وإن احتجتا إلى المساعدة، اتصلا بهذا الرقم ولا تترددا

مدت حور يدها وأخذته على مضض، فنظر لها حسن قبل أن يلتف والذهاب خلف ظافر مبتسماً:

- لا تتصرفي بعناد كالأطفال

ركب جميع الطلاب والأساتذة القطار وهم في حالة من السعادة والحماسة، وامتلىء القطار بصخب أحاديث الأصدقاء وضحاكتهم لكن ريحان كانت في عالم آخر من الشرود، تفكر ببؤس ويأس في حياتها وفي أفعال نرجس وكل من يشبه نرجس، كانت تفقد الأمل رويدًا رويدًا، كذلك حور التي كانت تفكر في عمها عابد الذي أصبح يطيل لسانه بكل سوء عنها في كل مجالسه وكأنه ليس عمها أخ والدها الذي استئمنه عليها، وشعرت لأول مرة بكره الحياة وعدم رغبتها بها. وفي ظل هذا الشرود كان كلا من ظافر وحسن يراقبان ما حول ريحان وحور، وهذا ما جعلهما يتحركان ناحيتهما فور أن وجدا نرجس وظلها أسامة وبقية أصدقائهما الفاسدين يحومون حولهما، فجلس الاثنان في المقعدان المقابلان لهما، انتبهتا لهما، فقال ظافر مقتصرًا:

- نرجس ومن معها

تنهدت ريحان بأسى وحييل لون وجهها النضر إلى شحوب، فأغلقت حور عينها قصرًا تحاول كتم غضبها الجارف إلا إنها لم تستطع كبحه أكثر؛ فانفجرت غاضبة وهبت واقفة تتجه ناحية نرجس وأصدقائها؛ فتأهبت نرجس واقفة كذلك

هي ومن معها، لكن حال بينهما حسن الذي نظر لها وهو يهمس:

- ليس الآن، لا تهاجميها أمام العلن دون سبب، سيكون هذا التصرف ضدك فيما بعد

فتراجعت قليلاً، وهي تنظر لإبتسامة نرجس المستفزة لتستفزها بأخرى منها. أمسكت ريحان بيد حور وهي تنظر لها برجاء، ترجوها قائله:

- تأني يا حور، تلك الفتاة ليست مثلك، إنها دون حياء

زفرت حور ما تبقى من غضبها وهي تنظر ناحية نرجس ثم ردت بهدوء تحاول أن تستجلبه:

- حسنًا يا عزيزتي

ثم نظرت لحسن تشكره وتؤيده:

- شكراً لك، أنت عل حق

أومأ برأسه لها وفي وجهه بشاشة مرحبة. طال الصمت والتأمل، حتى قاطعهم صوت رجل قمحي البشرة يلبس جلباب أبيض عليه عباءة جملية، ويلف رأسه بشال أبيض،

يمسك بيده عصا طويلة بيضاء ملساء تشبه فرع شجرة يحمل غصينات، كانت عصا غريبة جذبت أنظارهم لها بجانب هيئته وصوته الرخيم الثابت اللذان أوقعا في قلوبهم رهبة:

- مرحبًا بكم يا زائري الفيافي

ظهرت ملامح الاستغراب على وجوهم، فأردف مرة أخرى ببسمة عجيبة:

- ربما لا تعرفونني ولكني أعرفكم من كوابيسكم

نظروا إلى بعضهم البعض وهم يفكرون بكوابيسهم ويتسائلون فيما بينهم بنظرات متفحصة "هل تأتيكم كوابيس تشبه كوابيسي؟!"، فسأله ظافر مندهشًا من صدفة الكوابيس ومأخوذًا بهذا الرجل:

- من أنت؟!

- أنا الوسيط

ثم ضرب أرضية القطار ثلاث ضربات؛ لتلتف من حولهم دوامة خفيفة من الرمال الذهبية الناعمة وأصبح يتلاشى كل ما حولهم وكأنه يتآكل حتى وقعوا على أرض صحراء

شاسعة، لا يمد لآخرها بصر. نظروا حولهم بفزع وظل ظافر يصيح بكل قوته:

- أين أنت؟!، ماذا فعلت بنا؟!، أين نحن؟!

صمتوا قليلاً وغلبهم صوت خواء الصحراء، ذلك الصرير الأصفر لهواءها الذي يشبه الصحراء التي تتسع في قلوبهم؛ مع صدورهم التي تعلو تهبط من المفاجأة والقلق، خاصةً ريحان التي بدأت تنتفض بذعر، فصرخ ظافر بكل ما يملك من قوة لرؤيتها هكذا وهو يقول:

- لمـــــاذا نحن هنـــــا؟!

حينها ظهر لهم الرجل صاحب العصا يتقدم ناحيتهم من الشمال، فأسرعوا إليه يتلاهثون وعلى وجوههم الضيق والتوتر؛ إلا إنه قابلهم بإبتسامة صامتة، فتحدث حسن بعصبية وهو يقول له:

- لماذا أنت مبتسم هكذا؟!، هل تتعمد استفزازنا؟!، ومن أنت وما هي كينونتك؟!

اتسعت ابتسامتة حتى بانت أسنانه ناصعة البياض:

- أنا فقط وسيط

فقالت حور وهي تحاول أن تتمالك أعصابها:

- وسيط لأي شيء ولمن؟!
- لتحرريركم

فقالت ريحان وهي تختنق بالبكاء:

- من ماذا؟!
- من صحرائكم يا ابنتي

نظروا إليه جميعاً صامتين، فاستطرد مستكملاً:

- هل تنكرون أن الصحراء تتسع بقلوبكم، إن الجفاء والقسوة والخوف تحول القلوب الخضراء إلى أراضٍ بور فلا تصلح الحياة بعدها

تهدلت أكتافهم وانشغلوا بمخاوفهم والمواقف التي أتعبتهم وأحزنتهم، ثم قال مرة أخرى:

- لا تقلقوا!، هذه الرحلة إلى دواخلكم أنتم، لن تستطيعوا المواصلة بحياة سوية إلا بالمواجهة، مواجهة مخاوفكم

وأحزانكم؛ وإلا ستتحولون إلى أحياء أموات، لا تستثيغون للحياة طعم

ثم تحرك من أمامهم، فأسرعوا خلفه ولكن كلما حاولوا اللحاق به كانت المسافة تتسع بينهم وبينه حتى اختفى.

تلفتوا حولهم، وريحان تقول:

- إلى أين سنتجه؟

أجاب حسن بحيرة:

- ربما علينا الاتجاه في نفس المسار الذى مشى به هذا الشيخ
- يعني أن نطلق أرجلنا إلى ما تشتهي بنا الرياح
- أعتقد ذلك يا ظافر

سار الجميع وهم في في عالم آخر من الشرود، يفكرون في ما قد يواجهون، خائفين مما قد يروه، أحدهم يخاف أن ترى إحداهما حقيقة والده وعائلته، والآخر يخاف أن ترى الأخرى ما فعله طيشه ورعونته، وإلى أي مدى لا يعتمد عليه ولا يؤتمن كرجل على أحبائه، والأخيرة تخاف أن يظهر ضعفها وقلة حيلتها وهي التي ترسم القوة على محياها وكأن جيش

خلفها، والأولى تخاف أن يبتلعهم خوفها وهلعها، وهي التي تخاف من أن تخاف.

طال مسيرهم حتى حل عليهم الليل وأشتد عليهم الجوع والبرد، فتقاربت الفتاتان من بعضهما البعض تلتمسان الدفء، كذلك الشابان اقتربا من بعضهما البعض، والسماء من فوقهما تشتعل بوهج النجوم جمالاً، فكانت تسلب لبهم كلما رفعوا أعينهم للسماء يدعون الله، وكأنها كانت هدية وسبب لاستمرارهم في تلك الرحلة الشاقة دون تذمر علني. جلسوا على الأرض بتعب وإرهاق وصل إلى مبلغه، طال صمتهم حتى تناهى إلى مسامع حسن صوت ناي حزين تتناقله الريح، ففز واقفاً يرهف للصوت، وفز معه الجميع وهم وجلون، ثم سأله ظافر:

- ما الأمر؟!
- هل تسمعون هذا الصوت؟
- لا!، ما هو؟
- صوت ناي يأتي من بعيد
- أنا لا أسمع شيئًا

ثم نظرت الفتاتان لبعضهما البعض لتقول حور مؤكدة:

- ولا نحن أيضاً
- امشوا خلفي بسرعة قبل أن يختفي الصوت.. يبدو إننا سنجد طريقاً للخلاص من هذا البرد و الجوع

لاحق حسن الصوت وهم من خلفه بسرعة بالغة، خائف من أن يختفي الصوت، ولكن كلما اقترب كان صوت الناي يبكيه، كانت عيناه تذرفان الدموع بغزارة، لولا ستار الليل يخفيها. وأخيراً بدأ البقية يسمعوه فصاحوا بصوت واحد متعجبين:

- لقد سمعنا الناي**!**، لكن كيف لم نسمعه من قبل؟**!**
- لا أعلم**!**، ولكن المهم الآن التركيز على الوصول

ساروا قليلاً، حتى وجدوا شجرة كبيرة وارفة الأوراق الخضراء، يجلس تحتها شاب يعزف على الناي. اقتربوا بحذر متأملين بأن يكون نجدة لهم وليس مصدراً للشر والقلق، فانتبه لهم وقام من مجلسه وهو يقول بصرامة ممسكًا سلاحه بدلاً من نايه:

- من هناك؟

ارتبك الشابان ووقع قلب الفتاتان في أرضًا، ولكن ظافر وحسن وقفا قبالتهما وهما يهدأن من روع الشاب، فقال ظافر:

- لا تقلق!، نحن لسنا نصوص، نحن ضائعون في هذه الصحراء

وأكمل حسن:

- ونرجو منك أن تساعدنا

هدأ الشاب الأسمر بعد أن تفحص هيئتهم التي تدل على صحة كلامهم، فأدخل سلاحه مكان ما أخرجه من ملابسه، وأخرج الناي مرة أخرى، ثم قال:

- ربما تودون بعض الطعام والشراب!

فأجاب ظافر:

- نكون شاكرين لك
- لا شكر على واجب يا أخي

امشوا خلفي، بيتي قريب من هنا، فانصاع الجميع له؛ إلا إنهم ظلوا مترقبين من أي شرٍ ما قد يحدث.

بدأ ظافر ينظر لحسن بقلق بعد أن طال المسير خلف هذا الشاب الصامت الغامض، ولكن حسن كان شارد في تلك الدمعات الرقراقة التي رآها في عينيّ الشاب، وذاك اللحن الحزين الذي لم يسمعه أحد غيره. ثم ما لبثت شكوك ظافر تتبدد حينما رأى سعف النخيل والزروع تقابل أعينهم، فزفر بارتياح ثم للفتاتان يطمأنهما.

نظر إليهما الشاب وقال مبتسماً بلطف:

- مرحباً بكم في واحتنا، قريباً سنصل إلى بيتي وستجدون بإذن الله الزاد والراحة

فابتسم ظافر براحة واطمئنان وهو يجيب:

- شكراً لك يا أخي، وأتمنى ألا نكون ضيوف ثقيلة، ولكن في الصباح سنتدبر أمرنا بإذن الله إذا دللتنا على الطريق

عكص ما بين حاجبيه وهو يقول:

- هل تقول إننا ليس أهلاً للكرم

- لا لا!، أبداً

اتسعت ابتسامته بلطف أكثر وهو يقول:

- إذن لا داعي لكل هذه الكلفة، أنت هنا ستكون كما كنت بين أهلك وعشيرتك.. هيا بنا

سريعاً ما أعجب ظافر بشخصيته السهلة اللينة حتى وإن كان إنساناً معبىء بالأسرار وصمته ملىء بالغموض، وسار خلفه مطمئناً هو وريحان، أما حسن فكان ينظر إليه مبهوتاً مأخوذاً ثم وقف قليلاً وعينيه مثبتتين على هذا الشاب فقط، فلاحظته حور وسألته:

- ما بك يا حسن؟!.. طوال الطريق وأنت شارد ونظراتك مثبتة على هذا الشاب وكأنك ترى شيئاً لا نراه نحن

التفت إليها حسن وهو ينظر إليها نظرة تتكلم بالكثير والكثير ولكن دون أي رد على ما تريده، فقلقت أكثر وحاولت الاقتراب أكثر منه لتسأله إذا كان بخير أم لا، ولكن باغتتها حجرة تعثرت بها وسط الرمال كادت أن توقعها أرضاً كاد فيها أن تدق عنقها أو يصيبها مكروه لولا أن خاصرها حسن بعجل وتشبثت به وبملابسه. فكان اقترابهما من بعضهما

البعض شرارة أدت إلى الشعور بالخجل والتوتر. فقاما بالابتعاد على الفور وقامت حور بالاستعجال واللحاق بهم، وتنحنح هو ممسكاً بقلبه وهو على غير هدى يضربه ضربات خفيفة لتهدئة خفقاته المتسارعة.

أما ريحان فظلت تتحدث مع ظافر وهي تمشي خلفه تقول:

- يبدو أن أهل هذه الواحة سيكونون طيبين، فهو يبدو شاب طيب، لقد ارتحت له كثيراً حتى وإن كان غامضًا

عكص ظافر ما بين حاجبية وبرم فمه بعدم رضا:

- كيف ارتحتِ له؟

رفعت كتفيها للأعلى وهي تقول:

- لا أعلم، ولكني أشعر بأنه ليس شخصًا شريراً، يبدو إنني سأكون مرتاحة

زاد تبرمه أكثر وقال متذمرًا:

- يجب أن تكوني حذرة أكثر من ذلك.. فهو غريب لا نعرفه إلا هذه الليلة، أو بالأصح هذه الساعة

- لم أقل إنني رفعت حذري، كل ما أريد قوله أنه شخص مريح قد ارتحت له

شعر بغيظ وهو يحث نفسه على الهدوء وهو يقول بين خبايا نفسه" أكره أن تتحدثي عن أي رجل غيري.. يا إلهي إنها لا تدرك شيئًا"، ثم قال بيأس:

- حسنًا، حسنًا!

- لكن ملابسه تشبه..

فتعاظم غيظه واشتعلت أذنيه جمراً وقال بعصبية:

- هل ستتحدثين عن ملابسه أيضًا!.. لا تنظري إليه!

عكصت ما بين حاجبيها بغضب وقالت بنفس العصبية:

- لِما أنت غاضب هكذا!!!.. أنا المخطئة لأنني تحدثت معك

ثم نظرت خلفها لتجد حور على بعد متر عنها، فاقتربت منها وهي تزفر، فسألتها حور:

- ما الخطب؟

- لقد أخطأت بالحديث معه... كما إنه غليظ

فابتسمت وهي تداعبها وتقول:

- دعكِ منه الآن، أعتقد إنه متوتر بسبب وجودنا في هذا المكان الغريب

شردت ريحان قليلاً ثم قالت:

- منذ أن قابلنا هذا الشاب وأنا نسيت الحدث الغريب الذي حصل لنا وكأنها لم تكن؛ ربما لأنه عادي جداً وليس مخيف على الإطلاق، لكنني أشعر بأن ما حدث سيكون في صالحنا

صوتها لم يكن خفيضًا كفاية فسمعها ظافر، الذي أدار لها وجهه بحركة عصبية ونظرة متذمرة، فنظرت له ريحان باستغراب ثم نظرت لحور التي انفجرت بنشيج ضحكات مكتومة وهي تقول:

- يا إلهي، إنه مضحك!
- ولكنه لا يضحكني
- ربما لأنكِ لا تعلمين لما يفعل ذلك
- ولماذا يفعل ذلك؟!

- سأقول لكِ فيما بعد، لكن دعيني أعلق على شخصيتك الجديدة.. لقد أصبحتِ أقل توترًا وذعرًا مع الوقت، كما إنني أرى نضوج في نظرتك إلى اللحظات المخيفة أو الغريبة كتلك التي نعيشها

ابتسمت ريحان وهي ترفع حاجبيها وتجيب باندهاش:

- كل هذا جد عليّ

- بل كل هذا كان فيكِ لكنه كان مدفونًا تحت وطأة الخوف

فتنفست ريحان الصعداء وهي تشكر الله، ثم وقف الشاب وهو يقول لهم:

- لقد وصلنا هذا هو بيتي

ثم شاور على البيت الذي لا يختلف عن جميع البيوت التي مروا عليها في شيء، نفس المعمار الهندسي الذي يشبه بيوت مصر القديمة مع المشربيات الأرابيسك والأبواب الملونة ذات النقوش الأرابيسك، كانت منازل متشابهة إلى حد كبير ولكنها مميزة جدًا بهذا المعمار وتلك النقوش وذاك التشابه، وقفوا جميعهم بجانبه بعد أن دق على الباب ثلاث دقات تذكرهم حسن حينما يدق تلك الدقات داخلاً على والده،

ولكن تختلف النغمة. انفتح الباب وخرجت امرأة مسنة بلهفة عند رؤية الشاب وهي تقول له بنظرة شقت قلب حسن دون أن يعلم السبب:

- أين كنت يا راشد يا ولدي، لقد قلقت عليك

نظر لها راشد نظرة محبوسة، تبتعد عن النظر في عينيها، نظرة شعر بها حسن، ولكن نظرة والدة الشاب تمعن فيها بشدة وانشد عليه نياط قلبه حتى إنه كاد أن يبكي، ثم قال الشاب يستأذن والدته:

- معي ضيوف يا أمي، إنهم ضائعون في صحرائنا
- مرحباً بهم يا ولدي

ثم نظرت لكل فرد منهم، وثبتت نظرها على حسن وهي تقول:

- مرحباً بكم جميعاً، والد راشد لا يرد ضيفًا أبدًا

دخل الجميع مرتاح ما عدا حسن الذي كانت نياط قلبه تتقطع وعقله المشغول بكثير من التفسيرات وبكثير من الذكريات والمواقف، ثم قالت السيدة اللطيفة:

- مرحبًا بكم هنا، استئذنكم جيمعًا بالدخول لأبو راشد أبلغه بمجيئكم

دخلت، لتخرج بعدها بدقيقة ومعها شيخ وقور ولكن علامات الحزن واليأس باديه عليه، ولكن رغم ذلك نظرته لولده كانت الأكثر يأسًا وكأنه يطلب منه شيئًا ويرجوه، لكن ولده كان كالضائع؛ ضائع في عالم آخر يُستشف من بؤبؤي عينيه، ضياع شعر به حسن منذ إن وقعت عينيه على هذا الشاب، ثم قال بترحيب:

- مرحبًا بكم في بيتنا المتواضع

رد ظافر والفتاتان بصوت واحد:

- شكرًا لك جزيلاً يا عمي

ثم نظر له ظافر وهو يطلب بخجل:

- نحن في الواقع نريد أن يساعدنا أحد للوصول إلى الحضر
- لك ما تريد يا بني، ولكن للأسف السيارة الوحيدة التي تنقلنا جميعاً تخرج لعدة أيام، لذا قد تجلسون معنا ليومين آخرين، وإن كنتم مستعجلون سيستطحبكم راشد

إلى الحضر عن طريق الجمال أو الخيل أو المشي، ولكنكم قد لا تحتملون شمس الصحراء وتعب الترحال بتلك الوسائل البدائية، لكن لكم حرية اختيار قراركم رغم إنني أفضل ألا تنهكوا أنفسكم تحت شمس صحرائنا اللاهبة..

فنظر ظافر إلى الفتاتان وإلى حسن الذي ظل على حاله شارد في كل شيء دون أن ينتبه لأحد، ثم إلى الرجل الوقور وقال بخجل وامتنان:

- الفتاتان لن تتحملا، لذا سنختار أن ننتظر اليومان إذا سمحت
- هذا بيتكم يا ولدي، تفضلوا إلى داخل المندرة، وستعد لكم أم راشد العشاء

دخلوا جميعهم إلى المندرة ما عدا أم راشد وراشد الذى ذهب معها إلى المطبخ يساعدها، ثم سألهم أبو راشد:

- ما الذي حدث لكم لتضيعوا في الصحراء

فأجاب ظافر باقتضاب:

- كنا في رحلة جامعية وتهنا هنا.. في الصحراء

فنظر له الشيخ الكبير بقليل من الشك، ولكنه احترم خصوصيتهم، ثم نظر إلى الفتاتان، ففهم ظافر عن ماذا يريد أن يسأل وقال:

- إنهما زميلتان لنا، وأيضًا بيننا جميعًا صلة قرابة

فابتسم أبو راشد بلطف وهو يرحب:

- أهلاً وسهلاً

***

بعد ضيافة عشاء كريمة من عائلة الشاب راشد، تم ضيافتهم مرة أخرى بتوفير غرفتان متجاورتان لهما، غرفة للفتاتان وغرفة للشابان.

تمدد ظافر على الوسائد الناعمة وهو ينظر لحسن الذي ينظر للفراغ واضعًا رأسه على الحائط، وقال له بجدية:

- إلى متى ستظل هكذا يا حسن؟

- وما بي؟!

- تبدو وكأنك ترى العالم والبشر لأول مرة!

- بالفعل هذا ما أراه

فعكص ظافر ما بين حاجبيه محاولاً فهمه، ولكن سريعًا ما أدار ظهره بملل له وهو يغلق عينيه قائلاً:

- يكفي عليّ اليوم، سأنام!

ثم فتحمها مرة أخرى بقوة وهو يتذكر ما قالته ريحان عن راشد، وكم هذا يضايقه، ثم قال وهو يكتم غيظه:

- نعم يكفي!، يكفي أن تعتبرني ريحان كصديقتها طوال سيرنا خلف راشد، الذي تراه طيب ورائـــع

فابتسم حسن وسأله:

- هل تغار؟

تنهد ظافر بلوعة:

- يبدو ذلك!

- إن كنت تريد الإبتعاد فهكذا فلن تستطيع يا صديقي

ثم طال الصمت، بين ظافر الذي حال الأرق بينه وبين النوم والراحة؛ وبين حسن الذي كانت تأخذه مشاعره ناحية التفكير

بحور ولحظة قربها منه عنوة؛ فكور يده وضرب على قلبه عدة ضربات وهو يقول لنفسه "تأدب"، ثم قال لظافر:

- يبدو إننا لن نستطيع الإبتعاد

فتنهد ظافر مغلقًا عينيه قسرًا لنيل قسطًا من الراحة.

***

وفي الجانب الآخر كانت حور تبتسم وهي تقول لريحان:

- يبدو أن ظافر يغار

ارتفع حاجبي ريحان في دهشة وهي تقول:

- لماذا؟!
- هذا لا يحتاج إلى سؤالي، فكري!
- هل ظافر يحبني؟!
- نعم
- ربما هو من النوع الجد، الشديد الذي لا يحب أن تتحادث الفتيات معه
- ظافر يا عزيزتي ريحان من النوع الذي لا تعنيه شئون الفتيات إلا إذا كانت على مقربة خاصة

احتارت ريحان وقالت:

- ألم تقولي لي ألا أفكر في أمور قد تحطم قلبي
- ما زلت على رأيي، ولكني أخبرك بأن ظافر يحبك حتى لا تستغربي أفعاله بعد ذلك.. وهو ليس من نوع أولئك الشباب الذين يتسلوا، لكن هناك شيء ما يمنعه عنك

سألت ريحان بلهفة:

- ما هو؟!

- لا أعلم ولكن إن لم يكن هناك سبب لكان ظافر قد طلبك للزواج منذ لقاء والدك على الفور

فاندهشت ريحان قائلة:

- أإلى هذا الحد؟

- بالطبع، فكل ما قرأته في علم النفس يؤكد لي هذا

- وما رأيك في حسن؟!، فأنا أراه غامض

- حسن ليس غامض، حسن يعزل نفسه لأمر ما، أراه دائمًا كمن يشعر بالذنب.. أتعلمين من يشبه هنا

- من؟!

- راشد

- ولكنك لم تريه إلا هذه الليلة فقط

- ولكن الأمر لا يستحق التفكير والتركيز، الرابط بينهما قوي، كلاهما يؤرقهما ذنب وترهقهما حسرة وندم.. وأظن أن أول المغامرات تخص حسن

- أوووه يا لكِ من إنسانة يا حور.. أنتِ تتكلمين بثقة كمحللة نفسية بارعة

ضحكت حور ثم قالت:

- دعينا ناخد قسطًا من الراحة الآن، لنرى ما سنفعله بالغد

- حسنًا

ثم سريعاً ما شعرت ريحان بالخوف وهي تقول بعينين فزعتين وهي تفكر بما جرا لها وهي صغيرة:

- كيف ستكون مغامرتي؟!، أنا خائفة

فاقتربت منها حور وهي تغطيها:

- لا تقلقي يا عزيزتي، ليس هناك خطر بالتأكيد

- أتمنى!

***

في الظهيرة خرج ظافر متثائبًا وهو يبحث بعينيه عن حسن، ليجده جالسًا مع أبو راشد ومعهما حور، فاتجه إليهما محيياً السلام وسأل بتردد:

- أين ريحان؟

فأجابت حور:

- مع الخالة أم راشد في المطبخ

فابتسم أبو راشد بجذل وهو يقول:

- لقد أدمنتها زوجتي أم راشد في ساعتين، وقالت لي إنها تتمنى قلب مثل قلب ريحان في بيتنا حتى يهفو حوله راشد ولا يتركنا ولا يترك البيت أبدًا

فشحب وجه ظافر ولم يستطع أن يبتلع ريقه وكأن حنجرته مليئة برمال ناعمة، امسك رأسه وهو يجذب شعره بين أنامله للخلف بعصبية، والكف الآخر وضعه على قلبه يستشعره وكأنه هرب، ثم قالت حور لتزيد الطين بله على قلبه الذي هرب:

- وهي كذلك يا عمي، لقد أحبتها ريحان جدًا، وريحان من النوع الذي لا يألف إنسانًا بسهولة إلا وكان قلبه من ذهب

فسأل بصوت شاحب وباهت ومخنوق كوجهه:

- وأين المطبخ؟

فأشار له أبو راشد. ليتجه إليه وهو يقول لنفسه "هل ضاعت مني للأبد"، وقف بجانب الباب وهو يتنحنح، فأذنت أم راشد، ودخل عليهما وهو يبحث عنها وعن رائحتها وعينيها، محييًا السلام، لتحييه كلاهما السلام، ثم قالت أم راشد:

- أجلس يا بني سأطعمك ألذ فطور ستحلم به لأيام

فابتسم لها مجاملاً، وقلبه مُعلقاً بها، تلك التي فُزع بسببها ويحتاج لأن يطمأن، فقال سائلاً:

- هل أستطيع أن أفطر هنا معكما؟
- بالتأكيد يا بني

وضعت ريحان أمامه أطباق الطعام وهي تنظر إليه بود تسأله:

- هل أنت بخير يا ظافر؟

- بخير!

- ولكني لا أشعر بذلك، تبدو مضطربًا وتنظر إليّ كأن هناك أمر جلل.. هل حدث شيء؟!

فنظر ظافر إلى الأطباق محاولاً لملمة أمره والتماسك، ثم نظر لها مرة أخرى وقال:

- بخير!، ربما لأنني أفكر في ما قد يحدث بعد

فجلست وقالت بخفوت هي الأخرى:

- أنا أيضًا.. كما إنني خائفة، لكن حور قالت لي كل الأمور ستكون بخير

نظر إليها بجدية وصدق وقال:

- لا تخافي أبدًا وأنا معكِ

فتوترت واحمرت خجلاً، ليتوتر هو الآخر معدلاً جملته:

- أقصد ونحن معك!

ابتسمت ريحان بلطف وهي تقول:

- شكرًا لك يا ظافر، والحمد لله إنني معكم ولست وحدي

فابتسم لها في المقابل، لتتلاشى بعدما سمع أم راشد تقول لها:

- ساعديني يا ريحان، هذه أكلة راشد المفضلة وأنا أريدها جيدة بما يكفي لأنه لم يأكلها منذ مدة بقدر سفره
- حاضر يا خالة

وقفت ريحان ليقف ظافر من خلفها مقتربًا منها وهو يقول باضطراب:

- سآكل منها أولاً إذا قمتِ بتحضيرها

فالتفتت له ريحان بتعجب واندهاش على تصرفه وهي تقول له بتوتر ناجم عن اضطرابه:

- حاضر يا ظافر!

فضحكت أم راشد وهي تنظر له بتمعن وتقول:

- جميعكم ستأكلون منها، ولكن أنت أولاً لا تخف

فحك ظافر رأسه بحرج وهو يقول:

- كنت أريد تذوقها فقط لا أكثر
- سأجعل ريحان تسكب لك طبقًا منها فور أن ننتهي منها
- حسنًا، شكرًا لكِ يا خالة

سمعا كلاهما صوت غريب بالخارج، فصاحت أم راشد بفرحة شديدة:

- لقد أتت نوارة

ثم خرجت وخرجوا من ورائها، ورأوا نوارة وهي بين أحضان أم راشد التي تخبرها بحب حقيقي:

- لقد اشتقت إليكِ يا ابنتي، كيف حالكِ؟

ابتسمت نوارة بصفاء وهي تقول:

- لقد كنت عندكم يا حبيبتي من ثلاثة أيام
- ولو!، أنتِ غاليتي التي لا أشبع منها أبدًا

فضحكت نوارة بحب محتضنة أم راشد مرة أخرى، لتقول أم راشد فيما بعد:

- هذه نوارة ابنتنا

فأقبلت ريحان على نوارة تسلم عليها وتعرفها بنفسها بحب:

- تشرفت بلقائك يا نوارة، أنا ريحان

فتأثرت نوارة بلطف ريحان وبرائتها وقالت:

- أنا أكثر يا ريحان، يبدو إننا سنصبح صديقات

ثم أقبلت عليها حور هي الأخرى بود وقالت:

- تشرفت بكِ، أنا حور

فنظرت إلى السيدة أم راشد وهي تمسك بيد حور وتقول:

- من أين أتت تلك الفتيات الجميلات يا أم راشد؟!

فضحكت الفتاتان، لتقول مرة أخرى لحور:

- وأنا تشرفت بكِ كذلك يا حور

ثم عكصت ما بين حاجبيها وهي تنظر إلى الفتاتان مستطردة:

- هل أنتما أختان؟

فردت الفتاتان بنفس الوقت:

- بلى، ولكن من أبان وأمان مختلفان

فعكصت نوارة ما بين حاجبيها محاولة الفهم، كذلك أبا وأم راشد، فضحك كلا من حسن وظافر، ثم قال الأخير موضحًا:

- إنهما صديقتان ولكن يفضلان أن يكونا أختين

فضحكوا جميعًا هذه المرة، ثم دخلت الفتيات مع أم راشد إلى المطبخ، وجلس السيد راشد مع الشابان يحكي لهما تاريخ المنطقة كله وما مر عليها، وكم كان ذاك الحديث ممتع لظافر الذي يتمنى شخصًا يتخيله والده وهو يحكي له تاريخ وحكايات أو أي شيء، وحسن الذي كان يسمع بقلبه الذي شعر بأن أبوابه انفتحت لأول مرة منذ أن أتى إلى هنا، وشعر إنه يستمع إلى والده، فكلما نظر في وجه أبو راشد وقسماته وإيماءته ذكرته به، حتى دخل عليهم راشد من باب البيت ليشعر أنه راشد وأن راشد يكون هو بتلك العينين المنخفضتين وبذلك الحزن الذي يملأ قسمات وجهه كلما دخل البيت، ولم يعد بحاجة إلا لإثبات واحد لتأكيد ما يشعر به.

حياهم راشد، فنظر حسن إلى وجه أبو راشد ليرى ما كان لا يراه في وجه أبيه حتى وهو ينظر له، ووجد ما جعله كاد أن يبكي، رأى نظرة الشيخ مليئة بالشوق رغم الحزن والكسرة، يرى عين أب تريد أن تحتضن عين ولدها، ثم فكر "هل هذا ما يفعله مع والده، وهل والده كما هو أبو راشد، هل كان عليه أن يرى من خارج الصورة ليدرك الأمر!، لينظر إلى

الأمام ويرى الحقيقة.. ولكن لابد من الإثبات الأخير؛ ثمن الحزن وتذكرته"

سأل أبو راشد راشد:

- هل رأيت الحقول وحظائر الإبل يا بُني؟
- نعم يا أبي
- وما رأيك فيهم؟
- الزروع ممتازة، لكن الإبل تحتاج إلى عناية أكثر حتى وإن زاد عددها
- ألن تنوي الاستقرار يا راشد؟!

فنظر راشد إلى الأرض أكثر وكأنه غاص فيها. فبادر ظافر مبتسمًا:

- هذا ما نقوله دائماً لحسن، فهو دائم الترحال

فنظر حسن إليه مشدوهاً وكأن كلمات ظافر تؤكد على إنه كراشد وراشد كحسن، فسأل أبو راشد حسن:

- هل تسافر أنت أيضًا؟

فأومأ رأسه بالإيجاب وهو يقول:

- نعم!، فهذا يساعدني على تصفية ذهني والكتابة

فقال راشد:

- إنه أيضًا يساعدني على تصفية ذهني والرسم والكتابة قليلاً.. ولكن ما نوع كتاباتك
- بارك الله لك، أنا اكتب الروايات والكتب
- أنا لا اكتب في الحقيقة ولكن كتاباتي كأدب الرحلات أحكي بها ما لاقيته خلال سفري من قصص وأماكن مع الكثير من الرسومات
- هذا جميل، أتمنى أن تكون أنشأت معارض لرسوماتك
- لقد قمت بالفعل، لقد أنشأت ثلاث معارض حتى الآن
- رائــع!، لقد أسعدني نجاحك، وحينما أصل إلى منزلي سأبحث عن أعمالك
- وأنا كذلك، سيسعدني أن أقرأ لك

ثم جاء صوت ريحان ومن خلفها نوارة وحور التي قالت:

- لقد جهز الطعام

فأسرع ظافر ناحية ريحان دون تفكير وهو يحمل عنها ما تحمله قائلاً:

- أين ما أخبرتني به؟!

عكصت ما بين حاجبيها بتعجب منه وهي تقول:

- لقد شاركت بكل الطعام!

- هل مساعدتك أعجبت الخالة أم راشد؟

- بلى!

ففاجأها بردة فعله الغريبة وهو يقول بعصبية طفل:

- أتمنى أن يكون حلمًا، أو أن نكون في عالم موازي أو خيالي

- ما بك يا ظافر؟.. ما الذى جرى لك؟

أشاح وجهه بنفس التصرف الطفولي مجيبًا:

- لا شيء!

فابتسم كلاً من حسن وحور اللذان كان يتابعانهما، ثم اقتربت حور من ريحان وسحبتها إلى جانبها، كذلك حسن الذى فعل مثل حور، ثم قال له بهدوء:

- ما خطبك يا ظافر؟، لقد تبدل حالك كثيرًا وصرت تتصرف بطيش!

فرك شعره بأنامله وهو يقول:

- لقد أصبحت قلقًا عندما شعرت بأنها قد تضيع مني، وأدركت حقيقة إنني لن أستطيع الإبتعاد عنها كما ظننت، ولا أدرى ما أنا بفاعل!

ربت حسن على ظهره يهدئه:

- اختار ما يقوله قلبك يا ظافر

فنظر إلى الفراغ بتعب، كما نظر راشد إلى طرف نوارة بتعب وحسرة وحزن، حتى قاطعتهم أم راشد وهي تقول:

- هيا إلى الطعام

دخلت الفتيات مع أم راشد إلى غرفة الحريم الخاصة وقاموا بتناول الغداء في جو من المرح الذي افتقدته كلٌ منهم، فأم راشد لم يزور الفرح والبهجة بيتها منذ أربع سنوات من يوم الحادث المشئوم، وحور منذ أن فقدت أمانها في الحياة وكل حالات الفرح والبهجة منصفة مع الحذر والغصة المؤلمة، وريحان من عمر العشر سنوات تشعر بالذعر ولا تفتش عن

السعادة إلا التي تأتيها من حور وأهلها، ونوارة التي فقدت حبيب القلب في غمضة عين ولم ترتوي منه إلا عام، جميعهن تحمل ثقلاً وخوفاً وشوقاً وحنين.

ثم قالت ريحان:

- منذ متى وأنتِ متزوجة يا نوارة؟

ارتخت عيني أم راشد بحسرة، ثم قالت نورارة بألم:

- منذ خمس سنوات

فانتبهت الفتاتان، فسألتهما حور:

- لم تبدوان حزينتان هكذا في إجابتكما على هذا السؤال

فابتسمت نوارة بحزن وكأنها تعافر الحياة:

- لأن في الحقيقة زوجي مات منذ أربع سنوات

فترت الفتاتان في ألم على نوارة، ثم احتضنتها ريحان بقوة وهي تربت على ظهرها وتواسيها:

- الله يرحمه ويصبر قلبك

فسمعوا نشيج بكاء أم راشد، فقالت لها حور:

- أعلم إنكِ حزينة على ابنتك نوارة، ولكــ..

فقاطعتها نوارة وهي تضحك ضحكة خافتة:

- هي حزينة علىّ، لكن من مات هو فلذة كبدها!

تفاجئت الفتيات، ولم يدرن بما يفعلانه إلا باحتضان أم راشد وهم يربتون على ظهرها بصمت يحترم ذلك الحزن، ثم قالت نوارة وهي تضحك لتحرك سحابات الحزن والألم:

- أرأيت يا خالة كيف ظنوا إنني ابنتك ولست زوجة ابنك

فهدأت أم راشد وهي تنظر لنوارة قائلة:

- أنتِ ابنتي يا نوارة، وأريدك أن تسعدي..
- لا تكملي يا أمي، أنا لن أتزوج من بعد رشيد، سأنتظره زوجًا لي في الجنة

ثم احتنضتها نوارة بقوة قبل أن تذرف دمعتها الحارة أمامها، ثم قالت وهي بين أحضانها:

- أتمنى أن تحظيا بحماتين كأمكما مثل ما حظيت بأم راشد

وبكت أم راشد كما لو إنها لم تبكي من قبل، وبكت الفتاتان معهما في صمت.

***

وقف حسن في الاستراحة الخارجية يتأمل المكان وبداعته في دهشة على قدرة الخالق المصور، حتى سمع صوت خطواتها وحفيف جلبابها قادمة من خلفه، فنادى باسمها:

- حور!

فاستغربت سائلة:

- كيف ميزتني؟!

فابتسم بخفة وهو ينظر إلى جهة أخرى حتى لا تفضحه عيناه:

- لقد خمنت فحسب
- حسنًا، أود أن أتحدث معك في أمر وجودنا هنا في بيت الشيخ راشد

ارتسمت ملامح الجدية والقلق في آن واحد وقال:

- ما هو؟
- أنا أرى أن وجودنا هنا لأمر يرتبط بك يا حسن، أليس كذلك؟

فتنهد بألم مجيباً:

- بلى، ولكن كيف عرفتِ؟!

- شرودك وحزنك، نظراتك إلى راشد وكأنك تقارنه بنفسك، نظراتك إلى الخالة والشيخ والديّ راشد يفضحان شوقك وكأنهما والديك

تنهد ولكن هذه التنهيدة كانت أشد وجعًا، ثم قال:

- سأخبرك بكل شيء

ثم قص عليها كل شيء منذ الحادثة التي حدثت بسببه والتي على إثرها فقد أخته إلى الأبد وفقد معها الجميع حتى نفسه. فنظرت إلى عينينه الدامعتين وقالت:

- وهل تظن إنك قتلتها؟

صمت حسن ولكن عينينه لم تنتهي من ذرف دموع الندم، فاستطردت:

- ربما كنت طائشًا ولكنك لم تقصد قتل أختك وهذا سبب، والسبب الآخر هو أن الأعمار بيد الله، هذه الموتة كُتبت لأختك، كما إنك كنت معها في السيارة وكان من الممكن أن تموت أنت إن كان الأمر مجرد طيش فقط ولكن هذه أقدار

استند حسن بذراعيه على سور الشرفة وانهار باكيًا، فقالت له مرة أخرى راجية:

- أرجوك لا تعذب نفسك لشيء ليس لك يد فيه، وحتى تصدق كلامي أريدك أن تذهب وتسأل عمي أبو راشد إن كان يلوم راشد على ما حدث لرشيد أم لا

فهدأ قليلاً وقال:

- هل حدث معهم كما حدث معي أنا وأهلي
- أظن ذلك، راشد ورشيد أخان توأمان، ووقع حادث لرشيد وأظن أن راشد يضع اللوم على نفسه كما تفعل أنت أيضًا، ولكنني لا أرى هذا اللوم في عيون والدىّ راشد أو حتى نوارة ولكني أراهم في عيني راشد فقط كما أراه في عينيك أنت أيضًا.. وبما إن هذه المغامرة لك فأعتقد أنك تدري ما هي الحقيقة الآن
- لقد شعرت بذلك من عيون والديّ راشد وتمزقت نياط قلبي كلما أرى أن هذا الشوق في أعينهم وألم فقدانه هو الآخر موجود في عينيّ والديّ أيضًا

- ربما يتوجب عليك تصليح الأمور بينهم هنا، كما ستفعل في حياتك

أومأ لها بالإيجاب، ثم صمت قليلاً وبعدها قال:

- كيف ترينني الآن؟

فهمت قصده ولكنها قالت:

- أراك كحسن؟
- كحسن الطائش الذي لا يؤتمن على أرواح أحبابه ولا يحميهم كما ينبغي، أم كحسن الذي أخطأ كأي إنسان يخطىء
- لا أراك هذا ولا هذا، فأنت لم تتعمد إيذاء أختك، ربما ترى نفسك مخطىء عندما دفعك طيشك كما تقول إلى السباق كمنطق صحيح، ولكن في النهاية هذه أسباب وأقدار.. هون على نفسك

فابتسم لها بعد أن هدأ نشيجه، ثم قال:

- هكذا نكون متعادلين

عكصت حاجبيها بدون فهم، فقال موضحًا:

- البكاء!

فابتسمت حور بالمقابل:

- أعتقد هذا

ثم قالت أخيرًا:

- أريد أن أخبرك شيئًا أخيرًا يا حسن، رفضك لأي عذر أو رأفة من والديك لك أو أي أحد وإصرارك على لومهم لك ولنفسك ما هو إلا لشدة حبك لأختك وحزنًا على فقدانها، وهذا طبيعي، لكن ليس من الطبيعي أن تستمر في هذا اللوم!.. ارجع إلى والديك وانظر في أعينهم واحتضنهم بكل قوتك.. هيا إلى اللقاء في الصباح

فابتسم حسن براحة قائلاً:

- إلى اللقاء

***

في الصباح الباكر نهض حسن قبل الجميع في وقت استيقاظ أبو وأم راشد، وتفاجأ الأخيران بانتظاره لهما في بهو المنزل وهو يقول:

- أريد أن أخبركما أمرًا هامًا جئنا إليه حتى هنا رغمًا عن أنوفنا، خاصةً أنا، ربما تكون مغامرة لنجدتي من رحلتي الشاقة مع الندم واللوم ولكن لنجدتكم أيضًا كعائلة

نظرا إلى بعضهما البعض بعدم فهم، فابتسم وقال مستطردًا:

- سأشرح لكما

وقص عليهما ما حدث منذ أن رأوا الرجل ذو العصا، وعن حكايته الخاصة مع الحادث المؤلم ووفاة توأمته، ثم سألهم بقلق:

- هل تسامحون راشد؟

فأجاب أبو راشد:

- بالتأكيد نعم!، فهو لم يقصد أي أذى لأخيه، وهذه أقدار يا بني

ثم نظر إليه أبو راشد مبتسمًا وهو يقول مرة أخرى:

- رغم غرابة كل ما قصصته عليّ، إلا إنني أصدقك، وأصدق كل هذا.. سبحان الله الذي يسبب الأسباب ويخلق ما لا نعلمه ويدير العالم بحكمته ولطفه

فابتسم حسن براحة وقال:

- سأخرج مع راشد اليوم وسأتكلم معه
- أتمنى أن يرجع راشد القديم إلينا اليوم
- إن شاء الله يا عمي

ثم نظر إلى أم راشد التي تزين ثغرها ابتسامة عذبة وسألها:

- هل تصدقيني يا خالة؟!
- بالطبع يا بني، لقد زارني مثل هذا الرجل الذي تحكي عنه في المنام وأخبرني أن الفرج آت وراشد سيجد طريقه مرة أخرى إلى البيت

فتفاجيء كلاهما بما قالته أم راشد، وشرد كل منهم بالحياة والعالم، والله القادر على كل شيء.

بعدما استيقظ الجميع وتناولوا فطورهم، رحل حسن مع راشد إلى البستان، واجتمعت نوارة وأم راشد مع حور وأبو راشد بعد أن نهضت ريحان ومن خلفها ظافر لتطعم الأرانب الصغيرة في الباحة الخلفية. وقف ظافر خلف ريحان وهو عاكص حاجبيه، يقول لها:

- يبدو أن الحياة هنا تعجبك كثيرًا كما تقول أم راشد
- كثيــرًا، لا تتخيل كم ارتحت هنا ومع هؤلاء الناس

توتر كفاية ليقول لها بعصبية وهو يكتف ذراعيه على صدره:

- جبانة!، تهربين من العالم الواقعي لهنا، لأنكِ لا تريدين أن تواجهي مخاوفك

اعتدلت ريحان في وقفتها وهي تصيح وقد اغرورقت عيناها بالدموع في حنق:

- قد أكون فعلاً خائفة طوال الوقت وأبتعد عن مصادر مخاوفي ولكن الأمر ليس بيدي!!، لكنني لست جبانة ولا أهرب من مشاكلي أبدًا يا ظافر

فك ظافر عقدة ذراعيه وهو ينظر في كل اتجاه بندم، ثم قال:

- أرجوكِ سامحيني!، أنا آسف على طريقتي الفظة

- طريقتك الفظة!، لِما تعاملني هكذا؟!

فانفجر قائلاً:

- لأنني أغـــــــار!، لا أستطيع أن أرى تلميحات الخالة أم راشد في تمنيها أن تكوني زوجة لراشد في يوم من الأيام، هكذا تلميح يقتلني

ثم تركها وذهب تتخبط في عباءات الخجل وأصوات حب تدق على أوتار قلبها.

جلس حسن بجانب راشد يتأملان جمال البستان، فبدأ حسن قائلاً:

- يبدو هذا المنظر ملهمًا لرواية قادمة في الطريق

فابتسم راشد وهو يقول:

- عن ماذا ستتحدث الرواية؟
- عن شابان متشابهان ولكنهما في مكانين مختلفين، يلفان العالم ولكن ولا مرة تقابلا، حتى شاء الله في وقت معين أن يتقابلا ولكن بأكثر الطرق غرابة، لكن هناك حكمة خلف كل قدر وطريقة وموقف

انجذب راشد للحكاية وهو يقول:

- فيما يتشابهان بالضبط؟
- يتشابهان في معضلة وضعوا فيها، ويتشابهان في نفس الرؤية، يشعران بالحزن والثقل واللوم لفقد عزيز

شعر راشد بأن هناك أمرًا مقصودًا في حكاية حسن فقال مستفسرًا:

- كيف تقابلا؟

- كان يجلس أحدهما تحت شجرة وافرة الخضرة يعزف على ناي، والثاني تائه مع أصدقائه في الصحراء

تغيرت ملامح راشد بمفاجأة:

- هل تقصدنا يا حسن؟.. أنا وأنت؟!
- نعم أنا وأنت!
- لكن لماذا؟
- لأننا مررنا بنفس الفقد ونفس التجربة، ولكن بالصدفة مررنا بنفس المشاعر والنظرة للأمر

عكص راشد ما بين حاجبيه وهو يقول:

- كيف؟!
- دعني أولاً أقص عليك كيف جئت إلى هنا وبعدها سأقص عليك تجربتي التي بسببها جئت إلى هنا

بعدما قص عليه حسن ما حدث قبل أن يتوهوا بتلك الصحراء، انفغر فاهه واتسعت عينيه بدهشة:

- يا إلهي!، كيف هذا؟

- أيضًا والدتك جاءها نفس الشخص بالمنام قبلاً يبشرها بالفرج

فانعقد لسانه وتعلقت عينيه بحسن أكثر، فاستطرد حسن:

- والآن دعني أخبرك ما حدث لي منذ خمس سنوات.. في يومٍ وليلة فقدت توأمتي في لحظة طيش مني، كنت أقود بسرعة فائقة متباهيًا بقوة سيارتي أمام منافسي الدائم ونسيت مناداة أختي لي بالتوقف كلما زادت سرعتي، أختي التي كنت دائم الحرص على سلامتها وأمانها فقدتها بكل رعونة مني في لحظة طيش.. حقيقة لا أعلم ما حدث لي وقتها!!، ولكن ما حدث غير حياتي بالكامل، أصبح البيت كئيب والحزن يعشش في كافة الأركان.. تماديت في حزني حتى بدأت أفقد في قلبي حب والدي لي، وبدأت أشعر أنهم لا يرتاحون بوجدي بينهم لأنني أذكرهم بموت شقيقتي، وصرت أهرب من عيناهما ومن البيت ومن نفسي، وبدأت الترحال كوسيلة للهرب والراحة

تجمدت عيني راشد وهو ينظر إلى حسن، ثم قال بخفوت:

- وكأنك تحكي عني!

- أترى الآن كم نحن متشابهان

فأومأ براسه إيجابًا، ثم أردف حسن مرة أخرى:

- والديك حزينين على رشيد ولكنهم أيضًا حزينان على ابتعادك.. هذا ما فعلناه نحن، نحن من نبتعد وليس هم، لوطأة الشعور بالندم والحزن واللوم على أنفسنا، نحن لم نسامح أنفسنا على أمر قد كتبه الله منذ زمن.. ربما نحن أسبابًا ولكننا لم نقصد، نحن أسباب ولله حكمة في كل شيء

- هل أبي وأمي يعلمون حكايتك؟

- نعم، وينتظرونك بفارغ الصبر

دمعت عينيّ راشد وهو يقول:

- كيف؟!

- أتقصد كيف سيقبلونك؟

فأومأ راشد بالإيجاب، فاستطرد حسن:

- لأنك تصر على أنهم لا يريدون قبولك، أو إنك لا تستحق هذا القبول

بكى راشد، بل انفجر بكاءً وكأنه لم يبكي من قبل، كل ما حبسه تلك السنوات خرج ليطفو على محاجر عينيه ورعشة يديه وحشرجة صوته، واساه حسن كما وكأنه يواسي نفسه بدمعاته المنسابة على وجنتيه بغزارة ويديه التي تربت على ظهره، ثم قال حسن مرة أخرى:

- الأمر يقتصر عليك الآن، يجب أن تسامح نفسك وتعطيها فرصة، وضع في حسبانك دائمًا إنك لم تقصد أي أذى لأخيك.. إنها فقط أقدار الله

جلس ظافر في الشرفة الخارجية يؤنب نفسه على تهوره وتسرعه، فخرج له أبو راشد يسأله:

- ما بك يا ظافر؟!، تبدوا ضجرًا وحانقًا
- أنا بالفعل حانق يا عم راشد
- ما الأمر؟
- لقد تهورت بقول أشياء لا أريد قولها، وتماديت كثيرًا وهذا لم أعهده مع نفسي قبلاً
- ربما قولته لأن الأمر مُلح بداخلك.. في الحقيقة الإنسان يقول كل ما يريد قوله حينما تسنح أول فرصة للحديث

فقال بعبوس:

- أظن ذلك!، ولكن ما كان يجب أن أقول هذا الكلام..
- الأمر يخص ريحان، أليس كذلك؟

نظر لقدميه بتأنيب وأجاب:

- نعم!

فابتسم أبو راشد وهو يقول بلا مقدمات:

- لماذا تهرب منها يا ولدي إذا كنت تريدها.. أنا أرى نظرات الحب في عينيك لها، حب نقي لا يحبه إلا الرجال

- لأنني أريد حمايتها!

- ممن تريد حمايتها؟!

- من ماضيّ وحاضري.. يكفي ما عانته هي، ويكفي ما رأيته أنا.. لا أريد لها الأذى أبدًا، ولا أستطيع التخلي عنها أيضًا.. أنا ممزق!

- لكل شيء حل، لا تتسرع في بتر عضو قبل أن تبحث له عن دواء وإلا فأنك ستعيش دائمًا مثقلاً بالندم

نظر له ظافر بتمعن وبتفكير، ثم انفرجت عقدة جبينه وهو يقول في تمني:

- أتمنى أن تنحل مشكلتكم مع راشد، وأيضًا مع صديقي حسن

فربت أبو راشد على ظهره بحنان وهو يقول:

- وأتمنى أن تنحل معضلتك يا بني، وأن تعش بسعادة

- قد تنحل معضلتي إذا كان أبي مثلك يا عم راشد

- ربما قد تنحل هذه المشكلة ولكن ستظهر مشكلة أخرى وعلينا التعامل معها والتعلم منها، إنها الدنيا يا ولدي؛ محل الاختبارات والابتلاءات ومع كل ابتلاء موعظة وحكمة وقوة تدفعك نحو التغير لشخصية أخرى واختبار آخر حتى النهاية

كانا في غمار الحديث حتى دخل عليهما حسن وراشد وتعلق نظرهما بهما، فوضع حسن يده على ظهر راشد وهو يهمس له:

- لا تضيع نظرة والدك هذه لك، انظر إلى عينيه واعلم مدى حبه لك، انظر إلى تمنيّ والدتك واخضع لدفء حنانها.. لا تضيع تلك الفرصة في أن ترى بقلبك لا بعينيك، حينها فقط سينقشع سراب اللوم والندم وتراها بعينيك جلية

رفع راشد عينيه بقلق وترقب وخوف، ليرى الدمع يلمع بعيني والده في احتياج، يطلبه حثيثاً، ثم نظر لوالدته التي خرجت بلهفة وكأنها ستراه لأول مرة بعد سفرٍ طويل،

وعينيها التي تتلهف للنظر إليه. فجثا على ركبتيه وهو يبكي قائلاً:

- كيف تسامحوني بعد كل هذا؟، كيف ستسامحني نوارة بعد أن سلبت حبيبها منها؟

فاقترب منه والديه يحتضنانه، وقالت نوارة وهي تكتم نشيج مرير من البكاء:

- أنت لم تسلبني شيئًا يا راشد، نعم أنا حزينه على فراق رشيد! ولكني لا أُلقي باللوم عليك أبدًا

ثم قال والده بحنو:

- ولما لا نسامحك وأنت ليس بيدك شيء!، نعلم إنه لو كان بيدك شيء لكنت أنقذته حتى وإن كان بحياتك، كما كان سيفعل أيضًا، أنتما الاثنان ولدينا ونحبكما بنفس القدر وهذا قدر ونصيب، وكان نصيب أخوك من عمره هذا القدر.. لا تقسو على نفسك

فاحتضنهما راشد بيديه وهو يشعر بالاشتياق إليهما، ويشعر بأن سحابة السراب التي كانت تبعده عن والده تتلاشى وتذوب بفعل حرارة اللقاء، وبكى الجميع معهم.

فنظرت حور إلى حسن نظرة فخورة به، فابتسم وتنهد براحة، ليقترب منه ظافر ويمسك كتفه يهزه ويربت عليه يبث فيه فرحته وسعادته بإنجازه، ثم تركوهم الأربعة وذهبوا إلى الشرفة الخارجية وهم يفكرون في الخطوة القادمة بعد أن أنهوا المغامرة الأولى الخاصة بحسن، ومن سيكون التالي!، ليفاجأهم صوته الرخيم من خلفهم وهو يقول:

- أحسنت يا حسن!، أنا فخور إنك أستطعت إقناع راشد بالحقيقة ومن قبلها أنت ببديهيتك وملاحظتك وقلبك الذي كان دليلك

فالتفت إليه الجميع وهم متفاجئون ومدهوشين، فقال حسن وهو يتلعثم من الدهشة:

- شكرًا لك ولكــ..

فقاطعه قائلاً لهم جميعًا:

- لقد انتهت المغامرة الأولى بسلام، ولكن الخطر يكمن في الاستسلام، ومن آثره سيرحل للأبد ولن يعود

ثم نظر في أعينهم جميعًا على حدا خاصةً حور وقال مؤكدًا:

- سيموت في منامه!

انصدموا وانفرجت أعينهم بفزع إلا من تنازعه فكرة الرحيل والاستسلام، ثم دارت حولهم ذرات من الرمل حتى أصبحت دوامة ابتلعتهم وألقت بهم في وسط صحراء جرداء من جديد.

تآوت الفتاتان من شدة الارتطام، فنهض الشابان يطمئنان عليهما، ثم نظر حسن حوله وهو يقول:

- لقد رجعنا إلى نقطة الصفر

فقال ظافر:

- لا لقد اقتربنا من النهاية بخطوة، مازال هناك ثلاث خطوات وهذه المغامرة ثانيها

فنظر إليهم حسن بقلق:

- أتمنى أن نرجع جميعنا ولا ينقص مننا أحد

ثم مشوا جميعهم الكثير من الأميال تحت لهيب الشمس وفي قلوبهم ألف قلق وفي عقولهم ألف سؤال، فاقترب حسن من حور وهو يقول لها:

- أشعر أن هذه المغامرة ستكون خاصتك.. أرجو ألا تفعلين شيئًا متهورًا

- لا تقلق!

فنظر إليها مطولاً:

- إذاً لا تنسي كلمات صاحب العصا، ضعيها دائمًا في رأسك، أنا لا أريد أي فقد بعد الآن

نظرت له بمفاجأة بعد جملته الأخيرة، فتركها ولحق بظافر وهو قلق. نظر إليه ظافر وقال:

- ما بك؟، تبدو قلقًا!
- أشعر بالقلق على حور، كلمات الشيخ صاحب العصا تقلقني عليها
- وما العلاقة؟
- إنني أشعر أن تلك المغامرة تخص حور، كما إنني رأيت عينيه وهي تقف عليها وكأنه يخصها بتلك الكلمات

ربت ظافر على كتفه وهو يطمئنه:

- لا تقلق!، نحن هنا معها ولن يحصل شيء سيء لها بإذن الله

- أتمنى ذلك من كل قلبي يا ظافر

ابتسم ظافر وقال بدهشة:

- أرى إنك تغيرت يا حسن، تلك الجملة اعتراف ضمني بأنك تكن لها شيئًا

ابتسم حسن في المقابل وقال:

- لقد تخطيت خوفي ولومي وبت أحلم من جديد يا صديقي

فرح ظافر لأجل سعادة صديقه وابتسم متمنيًا:

- أتمنى أن أجد حلاً لمشكلتي أنا أيضًا

- ستجد يا صديقي لا تقلق!

- كيف لا أقلق؟ لقد زاد قلقي بعد أن أفلت لجامي وأخبرتها إنني أغار في موقف عصيب

- وزاد قلقك لأنك كنت تريد الإبتعاد عنها بالطبع!

تنهد مجيبًا بحسرة:

- نعم!
- دعني أخبرك أن أمر الإبتعاد عن ريحان ليس حلاً لمشكلتك الأساسية، مشكلتك الأساسية هي أن تتخطى أمر ماضيك حتى لا يؤثر على مستقبلك، سيقف لك على كل خطوة ولن تحقق شيئًا.. ولكن رغم ذلك كنت لا أريدك أنت تتسرع وتخبر ريحان بأي مشاعر لك حتى تتجاوز أمر الماضي
- ولا أنا، كنت أخاف عليها من أبي وأخاف أن أصارحها وأصارح والديها باسم عائلتي المشبوه ولكنني أنا من صار من يؤذيها بتسرعه..
- اهدأ قليلا، فربما تنحل..

مشت ريحان بجوار حور وهي لاوية فمها، فنظرت لها الأخيرة وقالت:

- ما الأمر؟، لماذا تلوين فمك هكذا؟
- ألا ترين كيف يتجاهلني ظافر؟

عكصت حور ما بين حاجبيها باستغراب قائله:

- وما الأمر في ذلك؟

- لقد قال لي شيئًا كاد أن يصيبني بالجنون ولم يسعفني الوقت لأخبرك إياه في بيت أبو راشد

رفعت حور حاجبيها في تعجب وهي تسألها:

- ما الذي أخبرك به؟

- لقد قال لي إنه لا يتحمل تلميحات أم راشد في رغبتها في تزويجي راشد، وإنه يغار لأنه ظن إنني قد أوافق للهروب من واقعي والعيش معهم لأنني أحببت الحياة هناك

ابتسمت حور بدهشة وهي تقول:

- لم أتخيل أن يكون ظافر بهذا التسرع، شخصيته لا تقول هذا على الإطلاق..

ثم صمتت قليلاً وهي تجمع أفكارها لتقول بعدها وهي تنظر لريحان بتمعن وقليل من قلق:

- كنت أود ألا تتعلقي بظافر إلى هذا الحد.. ظافر ليس ندلاً إن كانت نظرتي به صحيحة ولكنه يعاني من شيئًا

ما يجعله متردد ومتحير.. أخاف أن يأتي يوم تتألمي فيه يا ريحان!

نظرت ريحان ببؤس إلى محل قدميها دون أن تنطق بكلمة واحدة، وآثرت عدم النظر إلى ظافر أو التفكير فيه ليسلم قلبها الذي يبدو وأنه انشرخ.

مشوا فترة طويلة حتى انهكت أنفاسهم بالكامل، خاصةً الفتاتان اللتان لم تعدا تقويان على المشي أكثر من ذلك، فجلسوا بأماكنهم وقد كانت الشمس على وشك الغروب، ولم تمض دقائق حتى دخلوا في نوم عميق إثر التعب. حتى أفزعتهم حور بصوتها وهي تقول:

- الرمال تهتز!

فأمسكت بها ريحان تهدأها وهي تقول:

- اهدأي يا حبيبتي، ليس هناك شيء، إنه مجرد كابوس لا تقلقي!

فهدأت ريحان وهي ترهف السمع لشيء بعيد قادم، ثم قامت وهي تقول:

- لقد جاءت المساعدة، أظن أن بعض الناس مقبلين علينا

فقال حسن:

- حسنًا سننتظر قدومهم

فقالت ريحان بقلق وخوف:

- أتمنى أن يكونوا أشخاص طيبين

وبدون وعي رد عليها ظافر:

- لا تقلقي أنـ...

فنظر إليه حسن وحور نظرة صارمة، على إثرها قطع جملته وأبعد عينيه في حسرة وحزن، وصمت.

لم تمض دقائق قليلة حتى رأوا قناديل تنير في دهاليز تلك الظلمة القاتمة، معلقة على إبل تزوم، فصاح جميعهم يطلبون النجدة بكل ما أوتوا من قوة.

اقتربت منهم الإبل المنيرة وهم مترقبون للقادم، حتى فاجأهم صاحبهم، أنثى ملثمة ترعى عدد لا بأس به من الإبل مع

كلبان، تفاجأوا جميعهم حتى حور التي دائمًا ترى أن النساء قادرات على فعل الكثير من العجائب.. ولكن أن ترى امرأة لا تهاب ليل الصحراء وبردها وذئابها وترعى ما يجعل العين تغوى فهذا ليس له مثيل عندها، فسألتها حور:

- هل تستطيعين مساعدتنا؟

ابتسمت عيني المرأة بلطف وقالت:

- بإذن الله أستطيع

ثم نظرت إليهم جميعًا وكأنها تعدهم، واستطردت تسألهم:

- هل تستطيعون ركوب الجمال؟!

فرد الشابان وقالا:

- نستطيع!

فنظرت للفتاتان، خاصةً حور تسبر أغوارها، فأمسكت حور يد ريحان وقالت بتحدٍ ومرح:

- أستطيع تدبر أمر نفسي ومساعدة ريحان، لا تقلقي!

فابتسمت المرأة على رد حور وكأنها كانت تدري ما الذي ستقوله وستفعله، وكم كانت النظرات والحوار مريبًا على

قلب حسن، كان يشعر بشيء غريب ناحية تلك المرأة، كما كان يشعر بالقلق.

ركبوا جميعًا ثم مشت الجمال قدر عشر دقائق بعد ركوبهم، فسألتهم المرأة قائلة:

- كيف جئتم إلى قلب الصحراء هكذا؟

فرد حسن مترددًا:

- لقد كنا في رحلة جامعية ولكـ..

فأكملت حور بجذل غريب:

- تخيلي لقد تبخرنا وسط زوبعة رمال ألقت بنا في قلب الصحراء، بعد أن رأينا شيخ كبير يمسك عصا غريبة في يديه
- هذا العجوز!..

وظلتا تتحدثان طوال الطريق بنهم وجذل وكأنهما وحيدتان تمامًا، فنظرت ريحان إلى الشابان بخوف وهي تهمس لهما:

- أنا خائفة على حور!

فسأل ظافر:

- لماذا
- لإنني أشعر بأن حور تحدث نفسها!
- كيف يعني؟!
- هذا ما أشعر به.. كما إن عينان تلك المرأة...

فسألها حسن بلهفة مليئة بالقلق:

- ما بها؟
- لم أراها بوضوح ولكنها تشبه عينين حور

فصمت حسن بتركيز، ليقول ظافر بسخرية:

- ما الذي تهذيان به؟، ما كل هذا الغموض التي تحطانه حولهما، خصيصًا حول تلك المرأة

فقال حسن بجدية:

- هذا حقيقة ما نشعر به يا ظافر!.. هناك أمر غريب، كما إنني خائف من تحذير الشيخ صاحب العصا

قالت بفزع:

- هل حور معرضة للموت؟!!

- إن شاء الله لن يحدث لها شيئًا سيئًا.. اقتربي منهما ولا تتركي حور بمفردها مع تلك المرأة يا ريحان

- حسنًا

نادت ريحان على حور وهي تقول:

- حور!، أريد الوصول إلى جانبك ولكنني لا أعرف كيف أوجه هذ الجمل

فالتفتت لها حور وهي تجيب:

- حسنًا يا عزيزتي

سحبتت حور لجام الجمل حتى أصبحت ريحان بجانبها، لتحاول بعدها ريحان أن تصير طرفًا في أحاديثهم ولا تترك حور وحدها كما قال لها حسن، حسن الذي كان يراقب كل خجلة وكل إيماءة من حور وتلك المرأة؛ الأمر الذي جعله يسوى على نار هادئة من الحذر والقلق؛ فكيف لها أن تكون..

اقترب الشابان منهن عندما سأم حسن من انتظاره وقلقه، فسمع تلك المرأة وهي تقول لها:

- ما رأيك أن تأتي معي يا حور؟

فارتفع صوت حسن بفزع:

- إلى أين؟!

التفتتوا إليه، فقالت المرأة الغامضة بعينين باسمة:

- لا تخف!، ستأتي معي نرى أول رؤوس جمالي للإطمئنان عليها فقط
- سآتي معكما
- حسنًا!، ليس هناك مشكلة

سبقتهما وهما من خلفها، فهمس حسن لحور:

- احذري منها، إنها تقلقني!
- إنني أرتاح إليها كثيرًا.. إنني أشعر أحيانًا إنني أحادث نفسي التي بداخلي، كلامي معها وكأنه خدر

وسعت عينين حسن وهو يقول:

- وهذا ما أخاف منه يا حور، لا تجعليني أقلق أكثر من هذا

نظرت إليه تطمئنه:

- لا تقلق أبدًا!

فأسرعت حور حتى أصبحت بجانب المرأة؛ ليغمغم:

- لا يبدو إنني سأرتاح حتى ننتهي من تلك المغامرة المقلقة

أوقفت المرأة رعييها بعد وقت ليس بقليل لترتاح الجمال وتأكل، وليرتاحوا هم أيضًا، وخلال ذلك الوقت لم يفلح أحد أبدًا من جذب حور من جانب المرأة، همست ريحان للشابان:

- لقد قلقت حقًا على حور.. حور وكأنها ليست معي أو معنا، عندما كنت بجانبهما شعرت إنني مبعدة!

فقال ظافر:

- ربما تغارين على صديقتك لأن أخرى تحظى برفقتها أكثر منك

فنظرت له بطرف عينيها وهي متضايقة، ثم قالت:

- لا!، الأمر ليس كذلك يا ظافر.. حور وكأنها في فقاعة تفصلها وتبعدها عنا

قال حسن:

- هذا الوصف أكثر وصف أشعر به، حور وكأنها في فقاعة تفصلها عنا فعلاً

- لكنني أيضًا أشعر بأن تلك المرأة ليست غريبة عليّ، لقد شعرت وكأنني تعاملت معها ورأيتها كثيرًا، ولو لم أشعر بقلبها الجيد لكنت شككت إنها ساحرة من ساحرات الصحراء أو جنية من جنياتها

فسألها ظافر:

- وما رأيك بالشيخ صاحب العصا؟!

- لا أعلم ما كنهه ولكن يخلق الله من يشاء ويدبر بتدابيره ما يشاء، إنه قدر، كقدر الخضر مع سيدنا موسى هكذا

- ربما!

حل صباح جديد عليهم في تلك الصحراء. استيقظ حسن وهو يبحث بعينيه عن حور ولم يجدها، ففز من تحت الغطاء بفزع وهو ينادي باسمها بعلو صوته ويبحث عنها بالجوار، فاستيقظ كلا من ريحان وظافر بفزع، واقتربت منه ريحان وهي تسأل بلهفة:

- ماذا حدث لحور؟!

- لا أجدها أبدًا!

أدارت ريحان ظهرها لهما وواتتها حالة من الفزع والخوف وهي تنادي على صديقتها بأنفاس مقطوعة برجلين لا تحتملان الوقوف، فأسرع إليها ظافر يبث فيها الأمل ويطمئنها، ولكنها انهارت بين يديه، فأمسكها وهو يحاول أن يعيد لها صوابها. وحسن ظل يبحث وهو يضع يده على قلبه وهو يحدث نفسه بصوت عال ويقول: "هل أخذتها تلك المرأة ولن تعود حور إلى الأبد، هل استسلمت حور ورضخت للهروب وترك الحياة كما قال صاحب العصا.. هل تلك المرأة ساحرة أم جنية أم ماذا؟..". كادت أن تدمع عيناه حتى وجدها قادمة مع تلك المرأة ناحيته من مكان بعيد، فهرول

إليها بكل قوته وهو ينادي اسمها حتى وصل إليها وهو ينظر إلى كل تفصيلة في وجهها، ثم قال بصرامة:

- أين كنتِ؟!

عكصت حور ما بين حاجبيها بعدم رضا وهي تقول:

- ولماذا تسأل؟!

نظر لها نظرة طويلة، ثم قال معاتبًا:

- لقد فقدت ريحان صوابها عندما لم تجدك

ثم نظر إلى المرأة ببغض وهو يقول مستطردًا:

- لأنها تشك بتلك المرأة.. تشك بإنها ساحرة أو ما شابه

ارتفع حاجبي المرأة بعينين مبتسمه وكأنها تبتسم بسخرية ممزوجة بدهشة؛ فغتاظ حسن، ولكن حور لم تآبه إلا للإطمئنان على ريحان، فأسرعت حتى وجدتها وهي بين يدي ظافر في نوبة ذعر، ترتعش وعيناها وكأنها بعالم آخر، فاقتربت منها بشفقة وهي تنادي باسمها، لتفيق بعدها بدقائق وهي تمسك يدي حور بلهفة وتقول بصوت بُحت أوتاره:

- أرجوكِ لا تتركيني يا حور!.. مهما صرت قوية سأظل دائمًا بحاجتك.. ألا تسألي نفسك لماذا!.. لأنكِ أختي التي لم أحظى بها من والديّ يا حور، أنتِ منقذتي وصديقتي وأختي، لا تتركيني أرجوكِ!

ربتت حور على رأس ريحان تهدأها وهي تطمئنها:

- لا تخافي يا ريحان أنا هنا.. لا تخافي!

فظهرت المرأة من خلفها وهي تقول:

- حور تحبك كثيرًا يا ريحان وقد تفعل أي شيء لأجلك، ولكن إن كنتِ تحبينها اتركيها ترحل معي

ففرك حسن بمكانه بعصبية، وعكصت ريحان ما بين حاجبيها باستهجان وهي تقول للمرأة:

- أتريدينني أن أتخلى عنها..

رمشت المرأة بعينيها كثيرًا بعد جملة ريحان وكأنها آلة توقفت لعطلٍ ما، ثم حاولت الكلام إلا أن حسن قاطعها وهو يقول:

- أنا لن أدعك تؤذينها أبدًا.. أو بالأصح..

ثم نظر إلى حور متمعنًا في عينيها مستطردًا:

- بالأصح لن أدعها تؤذي نفسها أبدًا

فتصنمت المرأة مرة أخرى وكذلك حور ولكنها نظرت إلى حور وهي تقترب منها وتنزع اللثام، فاتسعت عينيها واقشعر بدنها وهي ترى وجهها أمامها. ظلت تبحلق فيها بدهشة وكِلا ظافر وريحان ولكن حسن كان يعلم وتأكد في تلك اللحظة من صحة ما شعر به وما أدركه من مراقبتهما، فقالت لها حور تسألها:

- من أنتِ؟!!
- أنا هي أنتِ يا حور، أنا تلك المختبئة بداخلك التي تشاركك ضعفك وقلة حيلتك، أنا التي أبكي وأتألم وأنا كذلك القوة التي تحطم، أنا الخوف والوحدة.. أنا حزنك المتخفي يا حور، أنا جزء كبير منكِ.. تعالي معي نرحل؛ لتتلاشى كل تلك الآلام وتصبحين حرة

ثم ممدت يديها إليها، فنظرت لها حور وهي تمد يديها هي الأخرى بتخدر تام، ولكن حسن أمسك يديها وهو يقول بشدة مليئة بالحب:

- أنا أحتاج تلك اليد يا حور، لا تحرميني منكِ، دعيني أكون ذلك الذي تستندين عليه في أحزانك وآلامك، وتفرحين معه في أفراحك، دعينا نكّون عائلتنا الخاصة، وأنقذيني من آلامي وأحزاني وأسعدي قلبي وقلب عائلتي بكِ

فغرت حور فاهها وهي تستمع إلى كلماته العذبة، ثم أكمل مستطردًا:

- هل تقبلين بي زوج وصديق ورفيق؟

انفرجت أسارير ريحان وكذلك ظافر يبتسمان بسعادة، ثم ترك حسن يد حور وهو يسأل موافقتها بحنو:

- هل تقبلين؟

فظهرت بوادر ابتسامة على شفتيها وهي تومىء برأسها موافقة، لتتلاشى نسخة حور الحزينة من أمامهم كأنها حباتٍ من رمل، ويظهر من خلفهم الشيخ صاحب العصا وهو يقول:

- لقد نجحتِ يا ابنتي في معركتكِ، كما نجحتم جميعًا في الحفاظ على حور

ثم نظر إلى أعينهم المدهوشة به، واستطرد قائلاً:

- ولكن يا ترى هل تنجحون في المرة القادمة؟!.. أتمنى ألا تهيم وتتوه روح أحد الاثنين الأخرين في صحراء جرداء لا ظل فيها ولا نبت ولا ماء، أتمنى ألا تتعلق هنا بين الحياة والموت

ثم ضرب على الأرض بعصاه لتلتف حولهم حبات من رمال لتصير زوبعة تحملهم إلى مغامرة في دهاليز صحراء أحدهم مرة أخرى.

قُذف أربعتهم في بقعة أخرى في تلك الصحراء، بقعة تحمل مغامرة أخرى لأحد الاثنين، ظافر أو ريحان، أو ربما الاثنان مهددان بنفس الضياع والتيه. لكن تلك المرة كان رأي الشمس يختلف؛ فلقد غابت وغامت السماء بغيوم كثيفة سوداء ورمادية، رعدت وبرقت، وليس هذا بغريب إلا إن مع ظاهر المناخ الذي يوحي بالبرودة كان العكس؛ كان جو شديد الحرارة، وكأن كوكب الأرض جُن. استغرب أربعتهم الجو الحانق والمخيف بغرابته، فقال حسن لظافر الشارد بالسماء والمكان:

- ما هذا المناخ الغريب؟!، هل نحن على كوكب آخر أم ماذا؟!

فابتسم ظافر وهو يقول بحسرة:

- ربما هذا كوكبي
- ماذا تقصد؟!
- أشعر وكأن المناخ يعبر عني في حزني وغضبي يا حسن.. أظن أن هذه المغامرة تخصني

تنهد حسن بحزن عندما رأى حزن صديقه كيف هو، ثم قال وهو ينظر إليه بجدية:

- والآن قل لي هل ستواجه مخاوفك وأحزانك ومصاعبك أم ستجعل روحك تهيم هنا وتتوه
- لِم تقول لي هذا؟
- لأنك تائه منذ زمن يا صاحبي، لذا أريدك أن تجد ضالتك هنا لا أن تتوه أكثر

ابتسم ظافر ابتسامة مشتته وهو يُطمئن صديقه محاوطًا كتفه:

- لا تقلق عليّ يا حسن بإذن الله سنخرج من هنا جميعنا على خير
- أتمنى ذلك!

ثم حاوط كتفه هو الآخر ومشيا مستندين على بعضهما البعض، ومن خلفهما ريحان وحور اللتان كانتا مترقبتان، فقالت ريحان لحور الممسكة بيدها بقوة وكأنها سيأخذها أحد منها:

- لا تقلقي يا حور تلك المغامرة ليست خاصتي.. إنها لظافر، ولكني قلقة عليه.. انظري إلى كل تلك الأجواء!، إنه يعاني بشدة

فنظرت حور حولها وهي تشفق على ظافر من كل قلبها

لم يسيروا كثيرًا حتى وجدوا قصرًا كبيرًا ورغم إنه قصر إلا النفور منه كبير وعجيب، وكان ظافر يعرفه بل يحفظه عن ظهر قلب ففي ذلك القصر رأى أسوء أيام طفولته، وحين رآه انتفض انتفاضة ذعر جعلت البقية يقلقون، لكن حسن هو الوحيد الذي يعرف هذا القصر مما جعله يشفق على صديقه من قسوة تلك المغامرة عليه.. بالأحرى من قسوة أحزانه عليه. شد حسن على كتف صديقه بقوة، وظافر كان مرعوبًا وكأنه أصبح ذلك الطفل الصغير الذي كان يعيش بين جدران ذلك القصر، فقال وهو يكتم أنفاسه المتلاحقة:

- دعونا نذهب إلى مكان آخر

ثم سبقهم جميعًا على الفور وتبعوه هم بوجل، كاد أن يوقفه حسن ويقول له واجه مخاوفك إلا إنه تراجع حتى يتزن ويثبت مرة أخرى. ولم يسيروا كثيرًا حتى وجدوا ذلك القصر

من جديد أمامهم، ولكن ظافر لم يدرك أن ليس هناك من مفر وسار مبتعدًا مجددًا، ولكنه في قرارة نفسه كان يعلم إنه لا مفر؛ فجلس على الأرض بيأس وحزن واستسلام فأحاطته دائرة من البرق الذي أحال بينه وبينهم، كانت أسهم البرق تنزل وتصعق كل ما حوله، صرخوا باسمه لكنه لا يسمع ولا يرى ولا يشعر. حاول حسن الدخول إلى هذه الدائرة كثيرًا ولكنه لم يفلح وكاد أن تضربه صاعقة برق أكثر من مرة، ولكن ريحان قد حسبت الوقت الذي تنزل فيه صاعقة وأخرى من كل اتجاه، فاقتربت واقتربت حتى حانت اللحظة التي تستطيع فيها الدخول إليه، ثم كورت قبضتها باستعداد وجرت بأقصى ما لديها، لتصبح داخلها في ثواني معدودة تحت نوبة صرخات حور باسمها، جلست أمامه ونظرت إلى عينيه الضائعة، ثم نادته وهي تقول:

- ظـــــافر!، أنا هنا، أنا لن أتركك وحدك أبدًا

لكنها لم تفلح في استجلاب انتباهه، ولكنها لم تتوقف، ظلت تتحدث معه وتخبره في كل مرة إنها هنا وحسن وحور هنا، فبدأ بؤبؤيه يتحركا، فابتسمت بانتصار وهي تردد عليه أحاديثها وتقص عليه أشياء كثيرة تخاف منها وعن حادثة

اختطافها وبشاعة ما حدث لها، حتى بكت؛ فاهتزت يديه ورجليه، لتزيد هي أكثر، حتى قالت من كل قلبها وهي تتشبث بطرف كم قميصه:

- أنا لا أخاف وأنت معي وأصبح أكثر قوة

فتحررت عينيه ونظر إليها وعلى ثغره بادرة إبتسامة عذبة، وصارت حدة البرق تخف تدريجيًا، فابتسمت هي الأخرى وهي تسأله:

- قص عليّ مما أنت خائف منه
- خوفي يشبه خوفك يا ريحان، نحن متشابهان، ولكنني أخاف عليكِ أكثر مما أخاف على نفسي، وربما هذا ما جعلني أُحبس في جحيم ماضيّ وحاضر عائلتي وماضيها وربما مستقبلها
- ما الأمر يا ظافر؟

فقص عليها ظافر كل ما حدث معه في هذا القصر من حبس وضرب وإهانات لأنه لا يريد أن يكون مثل والده وعائلته، وأخيرًا موت والدته أمام عينيه بسببه.

دمعت عينيّ ريحان بألم، ثم قالت له وهي تبتسم إبتسامة مشجعة:

- يا لك من قوي يا ظافر!، كيف تحمل كل تلك الآلام بداخلك دون أن تتحول إلى شيء بشع؟!، وكم هذا يثير إعجابي بشخصك أكثر من ذي قبل
- حقًا، يعني إنكِ لم تريني فظًا وغليظ

فابتسمت ريحان بخجل وهي تقول:

- قليلاً فقط

فنظر لها طويلاً مع إبتسامة جميلة جعلاها تخجل ناظرة إلى الأرض، ثم قال:

- شكرًا لكِ يا ريحان
- لا شكر على واجب أستاذ ظافر

فضحك، لتستطرد مرة أخرى:

- لا تخبىء ما تخاف منه بعد الآن، ولا تخاف منه في العلن مثلي أنا أيضًا ولكن واجهه كما أود من نفسي أن أواجه مخاوفي

فأومأ برأسه إيجابًا وهو مبتسم، لتدور الأرض من تحتهم وتدور وتدور حتى وقفت أمام القصر من جديد، ولكن كان يتبخر هذه المرة ويتلاشى كحبات رمل طائرة، وهو واقف بكل قوة وعزيمة، لينظر إليها وهو يقول:

- لقد تمت مهمتي

فاقترب منه حسن بسرعة وهو يقول بعلو صوته:

- لقد نجحت يا ظافر، هنيئًا يا أخي

وكذلك حور والتي ما أن أتمت تهنئتها حتى ظهر صوت الشيخ صاحب العصا من جانبهم وهو يهنئْ ظافر:

- هنيئًا يا بني بتحررك، والآن عش حياتك بروح خالية من قيود، وواجه كل مصاعبك الجديدة بكل قوة وعزيمة..هنيئًا

ثم نظر إلى ريحان وهو يقول لها بشفقة:

- لم يتبقى إلا أنتِ يا بنيتي

فتحولت أنظارهم إليها بقلق، ليستطرد قائلاً:

- خوفك يقتات عليكِ، تغلبي عليه كما ساعدتي ظافر بالتغلب عليه

ثم ضرب الأرض ثلاث ضربات لتسحبهم دوامة رملية إلى بقعة أخرى من الصحراء الجرداء ومغامرة جديدة تنتهي بها تلك الرحلة نهائيًا.

***

قذفوا في قلب الصحراء للمرة الرابعة، ووقف أربعتهم في حذر، خاصةً ظافر الذي خاف أن يفقدها الآن بعد أن استطاع المواجهة ومحاربة مخاوفه وماضيه، وقف ينظر كالصقر في كل مكان يتأهب للانقضاض على أي شخص أو شيء قد يهدد أمانها. كذلك حور التي تمسكت بيدها بشدة مخافةً أن يحصل لها أي شيء.. ولكن كل هذا الخوف والقلق والتوتر ما كان إلا البوابة التي ستفتح بوابات ظلام الخوف على مصرعيه في قلبها.. الخوف يقتات عليها، وهم الآن يقدمونها وليمة له.

تشنجت أوصالها وارتعدت فرائضها، قلبها يخفق بقوة وتقترب من حالة ذعر شديدة، هذا كان حالها فكيف لا تقتات مخاوفها عليها؟!، وفجأة توقفت بعد أن سمعت شيئًا يُصدر حثيثًا، شيئًا تخافه ويأتي في أحلامها، فنظروا إليها وقبل أن يسألها أحد عن سبب وقوفها بقلق انطلقت حية الكوبرا من باطن الأرض، كانت ضخمة ومريعة، صرخت حور بفزع وتصلبت ريحان وبدت وكأنها تشهق آخر أنفاسها، أمسك ظافر بريحان وحسن بحور وهي يجرون بأقصى ما عندهم من قوة، ولكن سرعة تلك الحية كانت أكبر لكبر حجمها؛

فكانوا يراوغون بالجري بمنحنيات حتى اختفت من خلفهم فجأة؛ ليتوقفوا بعدها يلتقتون أنفاسهم وهم يراقبون بترقب، ليفاجأهم خروجها من أمامهم مرة أخرى ولكن تلك المرة كان معها ثلاث حيات أخرى التفت كل منهن على كل واحد منهم على حدا، ووقفت أكبرهن أمام ريحان وكأنها تنظر لها وتبتسم باستهزاء لكن لم يكن هذا بعجيب حتى نطقت تلك الحية وهي تقول بضحكة تمتلىء بحثيث الأفاعي والحيات:

- لم يبقى إلا القليل وستكونين لي للأبد ولن ينفعك أولئك الحمقى

ثم نظرت لثلاثتهم بتشفي وهي تقترب من ريحان المتصلبة ببطء، فصرخ ظافر بجنون باسمها لتفيق وكذلك حسن وحور التي كانت تترجاها قائله:

- ريحـــــأن، ريحـــــــان!، افيقي ارجوكِ

رمشت ريحان ببطء شديد وكأنها تفيق ثم ما لبثت سريعًا حتى ذعرت من جديد من بشاعة تلك الحية الضخمة، تراجعت ريــحان بعض الخطوات برعب لم تشعر به من قبل، فضحكت الحية بفحيح وهي تقول:

- أأنت خائفة؟!

لتصيح حور بتوسل وهي تقول:

- أرجوكِ اتركيها وشأنها

فأدارات لها رأسها وهي تقول:

- اخرسي أنتِ دورك لم يحن بعد!

ثم ابتسمت مرة أخرى وهي تنظر لريحان وتقول:

- لأنني سأقوم بقتل ثلاثتكم أمام عينيها ولكن بعد أن أُشبع رغبتي بتعذيبها أولاً

لتقول ريحان رغم رعبها:

- اتركيهم وشأنهم، لا تقومي بأذيتهم وإلا..

ضحكت الحية باستهزاء وهي تقول:

- ما هذه الشجاعة المفاجأة يا ريحان.. أنتِ لن تستطيعي تحمل عاقبة قولك هذا

ثم التفت حولها وهي تصدر صوت حثيثها المرعب، فصاح ظافر وهو يقول بعد دقائق من التفكر والثبات:

- ريحان تلك الحية هي مخاوفك ليست إلا هذا.. لقد قال صاحب العصا أن خوفك يقتات عليكِ، مخاوفك تلك تقتات عليكِ يا ريحان

التفت الحية إليه تاركة ريحان، واقتربت منه في بطء في حين أن زاد وثاق الحية الممسكة به أكثر ليزداد ألمه وطقطقة عظامه، وهي تقول:

- لأريك كم أنا حقيقية

صرخت ريحان وهي تصرخ عليها بنفاذ صبر:

- لا تقتربي منه أو منهم جميعًا أيتها الملعونة

لتنظر إليها مرة أخرى، ليقول ظافر مستفزًا إياها وببسمة ساخرة:

- كنتِ ستريني كم أنتِ حقيقية**!**، هل تراجعتي في رأيك**!**

فنظرت إليه مرة أخرى بغل، ووقعت في الشرك، فما كانت المخاوف إلا يأس ألقاه شيطان متكبر على قلوبنا، ونجح ظافر في جذبها بكبرها لتتحرر ريحان من قيودها بموجة قوة

تجعلها تقتل تلك المخاوف، فمع خوفنا على ما نحب قوة تجعلنا ندافع عنهم مهما كلف الأمر.

صرخت ريحان بكل عزم والتمعت بعينيها شرارة تحدي:

- قلت ابتعدي عنهم أيتها الغبية

ليهتز جسد الحية ويَصغُر حجمها عن ذي قبل، لتترفع صياحتهم باسمها فرحين، يشجعونها على هزيمتها، وقالت حور:

- أرأيتِ يا ريحان كم هي ضعيفة، لقد صغر حجمها لأنكِ تريدين حمايتنا فقط.. لا تخافي يا عزيزتي، لا تخافي أبدًا

زمجرت الحية بغضب وهي تقول لحور:

- اخرسي!

لتتقدم ريحان خطوتين للأمام وهي تتماسك، وتقدمت منها الحية في سرعة بالغة، فأغمضت ريحان عينيها حتى لا تصيبها رهبة الموقف، ثم أخذت تقول في نفسها: "لا تخافي يا ريحان، تذكري كم صغرت بعد أن تشجعتي، اخرجي

الخوف من قلبك يا ريحان واستعيني بالله"، ثم فتحت عينيها على آخرهما وهي تصرخ بكل قوتها:

- موتي أيتها الحقيرة

لتنكمش الحية أكثر مما كانت عليه ويصبح فحيحها المرعب أضعف، وظلت الحية تبتعد كلما اقتربت منها ريحان، حتى ظهرت على الحية بوادر نظرة خبيثة بعد حيرة وضعف، لتتحول لرجل يحمل سوط أسود تميز ريحان وجهه بسهولة، لترتعش يداها ويهتز بؤبؤيها في رعب، ليبتسم الرجل مقتربًا، فصرخت حور بألم على صديقتها وهي تقول:

- إنه مجرد ذكرى ملعونة يا صديقتي، ادفنيها في بئر سحيق واغلقيه

فاغلقت ريحان عينيها بتعب لتفتحهما مرة أخرى بلا مبالاة وهي تمسك السوط الذى كاد أن ينزل على جسدها وتقول:

- لقد نلت جزاءك أيها الحقير، مت وتعفن!

ليتلاشى بعدها الرجل من أمامها كحبات رمل متفتفتة، وكذلك الحيات التي أوثقت ثلاثتهم. فجرت عليها حور مسرعة تحتضنها وهي تقول:

- لقد نجحتِ يا صديقتي، لقد نجحتي

ثم ظهر صوت الرجل صاحب العصا يأتي من على جانبهم وهو يقول بجزل:

- لقد انتهت المهمة على خير يا شباب

فابتسم حسن قائلاً:

- ولكن كيف جئنا إلى هنا يا شيخ؟!.. وما هذا المكان؟
- في الحقيقة يا بني أنتم نائمون وتتجولون في عالم الموتى الأحياء

عكص ظافر ما بين حاجبيه برِيبة، فاستطرد الشيخ:

- ربما نسيت يا بني أن النوم هو مجرد موته صغرى، وأنت الآن في عالم ما بين الموت والحياة، قد تقابلون فيه مخاوفكم وأحلامكم ومشاكلكم وأرواح سترتبط مصائركم بها أو أخرى قد تمرون بها صدفة

فك ظافر عقدة جبينه وشرد حسن مفكرًا، وابتسمت الفتاتان بلطف، فقال لهم مُنهيًا مغامرة عجيبة في بطون العقول:

- والآن حان وقت الرحيل

ثم ضرب الأرض بعصاه ثلاث ضربات لتلتف من حولهم زوبعة من رمال ظلت تدور وتدور حتى تلاشت الصحراء تدريجيًا لتتحول إلى عربة القطار مرة أخرى.. نظروا إلى بعضهم البعض بهدوء بعد أن شعروا بأجفانهم الثقيلة، ثم ابتسموا لبعضهم البعض. كانت على وجوهم نظرة جديدة مليئة بالقوة مدفوعة بالتخطي ومعدلة بالتجاوز، نظرة جديدة لأشخاص ولدوا جديدًا بعد قيلولة في عربة قطار.

ثم نظرت ريحان إلى جانبها لتجد نرجس تنظر لها بإزدراء وغل، نظرة ذكرتها بتلك الحية، وكم كان لمخاوفها شكل قبيح، فقررت ألا تجعل لها مخاوف على الإطلاق تتغذى عليها حتى تصبح بهذا القبح داخلها بعد الآن، فقامت واتجهت إليها وعلى وجهها الامبالاة والإزدراء المتبادل، ثم اقتربت من وجهها قائله:

- إن كنتِ تريدين اللعب كالأطفال، فمرحبًا بكِ، انا جاهزة!

ابتلعت نرجس ريقها عندما لم تشتم في ريحان رائحة الخوف، فابعدت عنها وجهها وآثرت ألا تحتك بها بعد الآن..

بعد خمسة أعوام اجتمعت عائلة ريحان والسيد حسان في بيت عائلة حسن للاحتفال باليوم السابع لمولودة حور وحسن، مولودة جميلة حملت اسم توأمته "فريدة"، ووجد حسن السعادة مرة أخرى في بيته كما وجدت حور العائلة التي تمنت دفئها منذ وفاة والديها، عائلة مكونة من أُمان وأبوين وجد وأخت وزوج أخت وابنة، والأجمل زوج حنون تطيب الحياة بجانبه وتسهل.. ثم نظر ظافر للجميع وهو يحيط بكتفي ريحان وهو يقول:

- ابشروا!، سنأتي لكم بحفيد جديد

تمت بحمد الله

مهما تكالبت علينا أكثر مخاوفنا شراسة وبشاعة سيأتي يوم وتنتهي وتتلاشى كحبات رمال متفتفتة.. لا يغرنكم قوة أثر الحزن فابتسامة قد تضيعه، ابحثوا عن السعادة بكل قوتكم ولا تتركوا أرواحكم ليأس الشياطين الذي ترميه في قلوبكم

رحاب إبراهيم عجم